عبادة الشيطان

السيد محروس

مقـــدمة

فى البدء كانت الكلمة ، وليس قبل الكلمة سوى العدم .

لهذا نقول : أن ما يقابل الوجود المادى هو عالم بأسره من التصورات والرموز التى يرمز بها الإنسان إلى أفكاره . فقبل أن يلفظ الإنسان اللفظ الدال على الشىء لا يمكننا أن نتعرف على أى صفة من صفات الوجود لهذا الشىء .

بهذا المعنى يصبح الأنسان موجداً لعالم بأسره ، لا ينتمى إلى الوجود الطبيعى ، ولكنه يكتسب وجوده من وجود الإنسان ، وقد ينسى الإنسان نفسه ذلك ويبدأ فى التعامل مع ما أوجده كما لو كان متحققا فى صيغة الوجود الطبيعى الذى لاشك فيه .

وعلى هذا النحو جذرت البشرية سائر عقائدها ودلالات ومضامين تلك العقائد فى اللاشعور الدينى للبشر . فاكتسبت تلك العقائد صفة الحقائق العليا التى لا تقبل النقاش أو الشك .

لكن هذه العقائد احتاجت إلى قرون طويلة لكى تجذر نفسها على هذا النحو ، وكانت الرموز والمضامين والدلالات الدينية تتصارع فى

الاطارات المختلفة . أو داخل الإطار الواحد للعقيدة فتتطور بذلك العقائد للتتوافق مع مقتضيات العصور على اختلافها إلى أن وصلت عقائد الجنس البشرى الدينية إلى التوحيد .

نحن إذن ندرك فى وجودنا عدّة عوالم مختلفة ، منها العالم الطبيعى (المحسوس) ومنها الوجود الصورى «التصورى» الأسطورى . ونحن أيضا نسيطيع أن نفرق بين الكائنات الوجودية وبين الكائنات المتصورة الأسطورية ، وهذه الأخيرة كائنات من صنع العقل الدينى البدائى فى القرون السحيقة الأولى من عمر الإنسان .

هى إذن كائنات قديمة ، عريقة القدم ، قد تتغير ملامحها أو صورها أو حتى وظائفها أو أسماؤها . لكنها باقية ما بقى الإنسان ، لأنها تستمد وجودها من نبع الوجود الإنسانى ، ذلك الوجود القائم على دعائم أهمها الخيال والأسطورة .

والشيطان .. هو أحد الكائنات الأسطورية ، لأنه وجد حتى قبل الديانات الكتابية بالآف السنين وتتبع تاريخه يعنى تتبع تاريخ تطور العقائد البشرية .

والعقائد تتطور وفقا لمقتضيات ، أى أن هدفها تلبية حاجات معينة فى ظروف محددة ، ومن هنا كان للشيطان وظيفة محددة تغطى حاجة بشرية بعينها . بل حاجة كونية تصورها الإنسان فى عقائده .

ولقد مّر الفكر البشرى الدينى بمراحل عديدة فى تطوره قبل أن يصل فى النهاية إلى فكرة التوحيد . وكان هذا الفكر يقتضى فى بداياته تجسيم الآلهة المعبودة فى رموز مجسمة يتوجه إليها الإنسان بالعبادة ومع الانتقال من الثنوية إلى التوحيد . لم يكن ممكنا أن ينسب الشر إلى إله الخير ، ذلك إن أنصار التوحيد يجعلون الإله الواحد إلها مختصا فحسب بأعمال الخير ولاينسبون الشر أبدا إلى جوهر الإلهى .

ولما كان من المستحيل أن ينتفى الشر من العالم ، ولما كان لابد من وجود من يقوم بوظيفة الشر أو يصبح مسئولا عنه . فقد تم الاحتفاظ بوظيفة إله الشر ، على أن تنسب لكائن ذى قدرة خرافية على تحدى الإلة الأوحد وعصيان أوامره - إذ كيف يسمح الإله بوجود الشر راغبا فى كونه؟

ولذا لم يكن أمراً منظر أن تكون هناك محاولات لتصوير هذا الكائن الخرافى كما لو كانت تحركه شهوة التحدى التى تدفعه دفعا لإنشاء

مملكة تضم جنوده وتابعية ومن والاه من البشر وغيرهم من الجن والشياطين فيتوج نفسه إلها - من الدرجة الثانية - على من له السلطان عليهم من أولياء الشر . وما هذا الكائن المتألة المفتئت على وظيفة الإله الأوحد سوى «إبليس» نفسه .

* * *

ترجع جذور العقائد الإبليسية إذن إلى العقائد الثنوية فى الشرق ، وخاصة فى بابل القديمة ، حيث جعلت عقائد بابل من الإله «بعل» محورا للعبادة بعد إحلاله محل عبادة الإله «إيل» .

على أن «بعل» الشرير لم يكن فى عقائد أهل بابل سوى أبنا للإله «إيل» ذاته ، وسرعان ما حلت عبادة «بعل» محل عبادة «إيل» ومن المعلوم إن عبادة «بعل» تتصل بعبادة النجوم وتقوم على المعرفة (التنجيم) التى اشتهر بها أهل بابل والصائبة من عباد النجوم والكواكب .

ومن المعروف أيضا أن الرؤية القديمة للكون فى تلك العصور كانت قائمة على المعارف السائدة فى الحضارات القديمة . ومنها الحضارة البابلية، وأهم تلك المعارف : الفلك والتنجيم .

ومن الثابت فى عقائد أهل بابل والصائبة من عبدة النجوم أن الكواكب والإجرام السماوية إن هى إلا : «أرواح» متسلطة على أحداث العالم وأقداره . بما فى ذلك مصائر البشر أنفسهم .

وعن الديانة البابلية القديمة نقل يهود السبى البالبلى معظم أفكارهم الدينية عن الشيطان وقد سجلوا أفكارهم المقنولة من الأمم والعقائد الأخرى عن طريق بابل فى كتبهم المقدسة «التوراة» والتلمود .

ومن التوراة انتقلت فكرة «إبليس» إلى المسيحية تحت اسم «بليعال» الذى يعنى «الضار» .. ومع ظهور الإسلام تطورت فكرة الشيطان إلى ما صارت عليه .

فكرة «الشيطان» إذن فكرة عريقة فى القدم ، عرفها العرب والفرس واليونان والفراعنة ، وقد أقيمت لعبادة الشيطان المعابد الخاصة بتلك العبادة . وأشهرها معبد «بعل» فى بابل الذى بنى فى القرن الأول قبل الميلاد .

والواقع أن البحث فى نشأة وتطور فكرة الشيطان هو فى ذاته : البحث فى نشأة وتطور الضمير الخلقى للإنسان .

لقد ولد الشيطان على حد قول ريمون كار بنتييه : فى حين بدأ الضمير يطرح على الكائنات البشرية مسألة تعهد قدرها ذاتيا ، وبكل تأكيد مسألة مسئوليتها عن ذاتها .

بيد أن الضمير الخلقى فى مراحل تطوره الأولى كان يقتات على الخيال الدينى فى نموه ، وكانت الرموز الدينية - «الإله/الشيطان» - هى البذور الأساسية لحقل الخيال الدينى فى اللاشعور البشرى . ولقد استغرقت تلك البذور زمنا طويلا فى حقل الخيال الدينى حتى تمكن اللاشعور البشرى فى صياغة ضميره الخلقى من خلال الإلزام «الجبر» الدينى .

كان الإنسان فى العصور الدينية يتعامل مع الكون والطبيعة ومع نفسه عبر الرموز الدينية. وكانت تلك المرحلة الباكرة من حياة الإنسان هى المرحلة البدائية التى يسودها العقل الأسطورى ، لذا فإن الضمير الخلقى لإنسان هذا العصر هو الضمير البدائى الذى لا يستطيع أن يفهم من معنى التحرر الخلقى سوى النفى الكامل للأخلاق ! فى حين أن التحرر الخلقى لا يعبر إلا عن تطور آخر ، أرقى ، للأخلاق البشرية . تطور يتجاوز «الدينى» إلى «الإنسانى» عبر تجاوز «الإلزام» إلى «الإلتزام» .

* * *

إذن لن يكتمل لنا تصور الشيطان إلا إذا تتبعناه فى طورين مختلفين يمثلان الضمير الخلقى للإنسان فى بعض مراحل نشأته وتطوره وفى ضوء العلاقة التى تربط تطور الضمير الخلقى بتطور العقائد الدينية، وخصوصها من الثنوية إلى التوحيد .

ولهذا تفرض علينا دراسة فكرة الشيطان تناول هذا الصراع فى إطاره الدينى ، أعنى الصراع بين الخير والشر فى ارتباطهما بالقوى الغيبية . وفى ضوء علاقة الإنسان بالقوى الكونية .

لقد تصور الإنسان فى مراحل نشأة الضمير الخلقى البدائى أن وجود القوى الموجبة فى الكون لابد وأن يقابله وجود آخر للقوى السالبة . فلم يكن ممكنا تصور الكون خارج إطار الذهن الذى تتحكم فى تفكيره وتصوراته الكونية منظومة من الثنائيات المتقابلة أو المتضادة ، وكأن الكون كله فى جوهره ليس سوى ذلك المركب من النقائض والأضداد المتصارعة .

وهكذا استدعى وجود الخير ووجود الشر ، كما يستعدى وجود

على أن هذا الصراع الدائربين ظواهر الطبيعة ، يقابله صراع آخر فى النفس الإنسانية ، هو صراع الخير والشر ، على المستوى الخلقى ، وقد بدأ الإنسان يعى ملامح هذا الصراع فى بدائيته الأولى . بدأ الضمير الخلقى فى التكون ليعبر عن الإنحياز الخلقى للإنسان إلى جانب قوة من القوى الكونية .

فهو تاره انحياز للقوى الموجبة وما ترمز إليه من الخير والنور والجمال، وهو تاره أخرى انحياز للقوى السالبة وما ترمز إليه من الشر والظلام والغواية .

على أن هذا الانحياز لم يكن متضمنا معنى الخطيئة أو الفضيلة كما نفهمها اليوم ، بل كان هذا الإنحياز قائما على أساس الغلبة التى قوة من القوى المتضاضه التى تتبادل مواقع النصر والهزيمة عبر الصراع الأبدى القائم فى الكون .

وفى تطور آخر ، بعد ذلك ، للأخلاق . أمكن تحديد مفاهيم الحق والفضيلة وضرورة الإنحياز للقوة الرامزة لهما دون غيرهما ، وإن ظلت الأخلاق - مع ذلك - فى تلك المرحلة ، تسلطية . قائمة على الجبر والإلزام.

* * *

* * *

ومن طبيعة الإنسان أن يتصور نفسه ويتصور العالم ثم يعمل على تجاوز هذا التصور .

لذا ، يجب أن نتذكر دائما أننا ننظر إلى العالم الروحى من خلال الوعى ، وإن طريقة عمل الوعى تؤثر فى رؤيتنا للعامل الروحى . وأن هذه الرؤية تختلف من إنسان إلى آخر ، تختلف باختلاف أنماط التفكير . نحن إذن ننظر إلى العالم الروحى من خلال مجموعة من الأفكار والتصورات ينعكس خلالها العالم الروحى فى الذهن الإنسانى كما لو كان عالما أعلى وأكثر تجريدا من عالمنا ، أنه عالم الأفكار والأرواح ، عالم الذوات المجردة أو الوعى الخالصين .

ومعنى ذلك إن إنكشاف العالم الروحى للذهن الإنسانى ليس أكثر من وعى الإنسان بطبيعة وجوده وحدود وإمكانات وامتدادات هذا الوجود.. ونحن ندرك فى إمتدادات الوجود ، امتدادات الوعى ، أكثر من صورة للوجود وأكثر من تشكل للوعى ، وندرك من إمكانات الوجود ما هو سالب وما هو موجب . ونقوم بإسقاط هذا الإدراك على الطبيعى كما نقوم بإسقاطه على الذات فنرى فى النفس الإنسانية تركيبا من

السلب والإيجاب . وعندئذ لا نستطيع أن نعثر على معنى لوجود الصراع بين النفس الشريرة «السالبة» أو المعروفة بالنفس الأمارة . وبين النفس الخيرة «الموجبة» فى الإنسان سوى أن للإنسان إرادة فلسفية تدفعه دفعا إلى الانتصار على النفس الشريرة «الشيطان» وتجاوزها بالرقى إلى التأله، أو على أقل تقدير إلى مرتبة الخلافة الإلهية .

فالشيطان نفسه ابن هذا الصراع الذى تمخض عن تبلور الضمير الخلقى للإنسان . أما الضمير الخلقى ذاته فليس من معنى لظهوره فى العالم سوى هذا التفسير ، وهو أنه فى أصله : إرادة للتأله .

وتلك الإرادة . حدها الأول هو معرفة فضيلة الإنسان ، وهى الرغبة الدائمة فى تجاوز السالب إلى الموجب فى التكوين الإنسانى . فى حين كانت رغبة «إبليس» فى تجاوز السالب من تكوينه.تمردا على الموجب أو المنطق الذى يصنعه فى العالم ، وحدها الآخر هو معرفة وظيفة الشيطان.

لذا كان اختيار الفضيلة مع القدرة على الشر : حرية فاضلة أو إرادة تأله .

وعلى العكس من ذلك ، كانت حرية «إبليس» حرية غير فاضلة فى تمردها على الإله ، لأنها حرية لم تنبع من رغبة إبليس فى تجاوز السالب إلى الموجب فى تكوينه . بل هى تنبع من رغبة فى توكيد السالب وتغليب منطقة مقابل الموجب ومنطقه .

إذن - فقد يكون «التمرد» فى ذاته ، حرية فاضلة ، إذا كان يهدف إلى تجاوز السالب إلى الموجب سواء فى النفس أو العالم . وهو حرية مشروعة هدفها الخير والبناء .

وقد يكون التمرد حرية غير فاضلة إذا كان يهدف إلى توكيد السالب وتكريسه ، وهنا يصبح اختيار السالب مع القدرة على اختيار الموجب : حرية غير فاضلة أو إرادة شيطنة .

ولما كان الصراع بين الخير والشر قائما فى النفس الإنسانية ، وكانت للنفس الإنسانية الحرية التامة فى الاختيار بين السالب والموجب فى تكوينها على أساس من المفاضلة والإنحياز ، فأننا نجد فى هذه النفس إرادة للتأله تقابلها إرادة أخرى للشيطنة ، وكل أعمال الإنسان موزعة بين هاتين الإرادتين .

من هنا كانت الكتابة عن «الشيطان» كتابة عن «الإنسان» فى

جانب من جوانبه ، أو كل جوانبه . الذهنية أو النفسية أو الخلقية ، أو موقفه الفلسفى من نفسه ومن القوى المتحكمة فى الوجود ومصيره .

ومن هنا أيضا لن نجد أى جانب من تلك الجوانب التى يتجلى فيها أثر الإنسان فى العالم سواء كان ماديا أو معنويا إلا وكان للشيطان فيه نفس الأثر . إذ الغالب على العقل البشرى هو نسبة أفعال وآثار الإنسان إلى الشيطان ، خاصة إذا اتسمت تلك الأفعال وهذه الآثار بروح التمرد أو الإبداع أو الخروج عن الشائع والمألوف. وتلك هى وظيفة إبليس فى العالم.

ولنفس السبب يحتل الشيطان فى اللاشعور البشرى مساحة عظمى تتجلى فى صور شتى متنوعة من الإنتاج البشرى الذهنى أو الفنى كما تتجلى فى المجال الدينى والخلقى .

* * *

الوجود تحققها الفلكيه والقرابين ، ولم ينتقل الإنسان من قبل ظهور إبليس :

كان الدافع - لدى الإنسان - لظهوره هو أن تكون له وظيفة محددة .

لقد ظهر إبليس فى العامل ليضطلع بمهمة لولاها لما أمكن تفسير وجود التمرد أو الخروج عن المألوف الذى يحدده «العقل الجمعى» ومعتقده ، فهذا الخروج - بكل صورة - هو «الشر» ذاته .

إبليس يقوم - بهذا المعنى - بوظيفة واحدة ، متعددة المستويات - فنحن نجد آثارها فى المستوى الخلقى ، والمستوى الدينى ، والمستوى الاجتماعى .

وقبل هذا كله ، نجد أثرها فى «الذهن» البشرى ، إذ ينسب إلى إبليس كل خروج لهذا الذهن عن الفكر السائد ونمطه المعتمد فى العقل الجمعى .. وكأن المعنى هو أن إبليس قد ظهر ليتحمل مسئولية كافة الأخطاء والشرور والثورات فى العالم ، نيابة عنا ، حتى يرتاح ضميرنا ويلقى عن كواهلنا عبء مسئوليتنا الدينية والخلقية والإنسانية عن أفعالنا البشرية ..

لقد وجد «إبليس» ليقوم بدور «النحن» - السالب ، المرفوض . ويكفى هذا لأن يجعل منه رمزا معلونا فى اللاشعور البشرى .

التجسيم إلى التجريد إلا مع الانتقال من الثنوية إلى التوحيد .

ومع ذلك ، يدل استقراء تاريخ الفكر الدينى وتطوره على عدم نقاء كل مرحلة تطورية من شوائب المرحلة التى سبقتها . بمعنى أنه كان فى مرحلة التعدد : تولد آهلة وتموت آلهة ، وفقا لمقتضيات اجتماعية واقتصادية وتاريخية . ولم يكن مقدراً الوظيفة الإله المائت أن تموت بموته، بل كانت تضاف إلى وظائف إله آخر أقوى ، أو إلى كبير الآلهة ، وهكذا تركزت كافة الوظائف - فى النهاية - بعد تقسيمها إلى قسمين هما الخير والشر ، فى إلهين ، اكتفت بهما العقائد الثنوية دون سائر الآلهة .

- من هو الشيطان ؟
- أشهر اسماء الشيطان الأعظم .
- حياة الشياطين والجان ومملكتهم .
- عرش إبليس .
- جنود إبليس .
- وسائل إبليس .
- إبليس : «الروح المتمرد» .

★ من هو إبليس

★ من هو الشيطان ؟

الشيطان فى جميع العقائد والديانات هو « ملك الشر » .

بل هو أمير الأرواح الشريرة ، وهو الروح التى تعتبره سائر الديانات. ملاكا ساقطا ، وسر سقوطه هو تمرده على الله وعمله على إغواء آدم وإفساد ذريته .

ويقول « سيسويه » عن العرب ، أنهم يقولون : « تشيطن » فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، وهذا القول من فعل « شطن » أى أبتعد . و« الشاطن » هو البعيد عن الحق ، أو الرجل الخبيث ، أما كلمة « شيطان » – « Satan » فقد كان أول ظهورها فى التوراة وتعنى « المعارض » لكن الشيطان حمل أسماء كثيرة أيضا منها (لوسيفر» « Lucifer » فى التوراة والإنجيل ، وأيضا « إبليس » فى القرآن .

وكان أسمه قبل السقوط أو التمرد عندما كان مع الملائكة : « بزائيل » أو « عزازيل » ويعرف عند العرب باسماء غير هذه أشهرها (الحارث) أو « أبو مُرّة » . وفى المعتقد الشائع أن للشيطان من الجنود والأعوان مالا عدد له ولا حصر !

وفى التعريف بإبليس قال الحسن البصرى : «قاس إبليس ، وهو أول من قاس» . وقال محمد بن سيرين : «أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس» .

ويقول ابن مسعود وابن عباس : «كان إبليس رئيس الملائكة فى السماء والدنيا ، وكان أسمه عزازيل ، وفى رواية : الحارث ، قال النقاش: وكنيته «أبو كردوس» .. وقال ابن عباس : وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن ، وكانوا خزان الجنان ، وكان أشرفهم وأكثرهم علما وعبادة وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطانا رجيما »

ويذكر ابن كثير فى قصص الأنبياء قول الحسن البصرى : «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب : كان من الجن ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك ، فلما أمرت الملائكة بالسجود أمتنع إبليس» .(١)

فهذا الخلاف القديم حول «إبليس» والنوع الذى ينتمى إليه من الكائنات يجد صداه كذلك فى الفكر الإسلامى الحديث ، لكنه يبلغ مداه

فى المخالفة فيقال مثلا أنه : «لا يوجد نوع من الأنواع العاقلة أسمه الشيطان ، إنما الأنواع العاقلة ثلاثة : «الإنس والجن والملائكة» ، منها نوعان للإبتلاء هما الإنس والجن . والذين يفسقون عن طاعة الله ويكفرون به من هذين النوعين ، ويصبح كل منهما شيطانا . وإبليس أحد هؤلاء . فإن أسلم أو زال فثم ملايين غيره من الإنس والجن أصبحوا بأفعالهم الاختيارية .. شياطين» . (٢)

* * *

★ أشهر أسماء الشيطان الأعظم

ترجع معظم أسماء السيطان المعروفة اليوم إلى أصول قديمة عريقة القدم قبل ظهور الديانات الكتابية . وحتى كلمة الشيطان «العبرية» ذاتها والتى وردت فى التوراة فهى ذات أصول بابلية تحدرت إلى اليهود بعد السبى البابلى .

أما «إبليس» فيختلف اللغويون فى أصله رغم أنه الأسم الأشهر للشيطان فى العربية والاختلاف فى نسبته إلى إحدى اللغات السامية أعظم من الخلاف حول لفظ «الشيطان» . ومع ذلك يرى بعض الغربيين إن كلمة «إبليس» كلمة ذات أصول يونانية مشتقتة من كلمة «ديابلوس» التى تفيد معنى الوقيعة والإعتراض .

أما مادة «الإبلاس» فى العربية فلها معنى آخر يدل على فقد الرجاء من رحمة الله بعد الطرد والعصيان أما أسم «لوسيفر» الذى يعنى «حامل النور» فهو اسم لاتينى الأصل ، ويشير إلى كوكب الزهرة (فى الصباح» وقد تمت استعارة هذا الاسم فى اليهودية من كلام أشعيا النبى عن ملك بابل عندما لقب نفسه بكوكب الصبح - كناية عن الخيلاء - ثم تطورت

تلك الكناية المستعارة فى المسيحية عن لسان المسيح عندما قال أنه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء .

من أشهر أسماء الشيطان الأعظم أيضا اسم «بعلزبول» أو «بعلزبوب» وأصله من أسماء الآلهة المعبودة فى عقرون ، إله الطب وسيد الشياطين وتنسب له كافة الأمراض العصبية والنفسية «المس» .

أما اسم «مفستوفوليس» فيعنى (كاره النور) وهو بابلى الأصل يشير إلى (روح النحس) الذى يتسلط على بعض الكواكب . وقد أصبح «مفستوفوليس» فى العصور الوسيطه شيطانا مختصا بالسحر ويقوم أثره على أثر الكواكب فى الوجدان البشرى والذهن الإنسانى .

أما اسم «عزازيل» فيعنى «إله الخراب والقفار» وقد ورد فى التوراة وهو رئيس الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض فأعجبتهم بنات الناس وتزوجوا منهن ، ثم أنهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء . ويتسمى الشيطان فى الإنجيل باسم «رئيس هذا العالم» وقد ورد هذا الوصف فى قوله :

«لأن رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء» (يو ١٢ : ٣١)

وقد سمى رئيس العالم لأن كل تابعية من البشر ، ويسمى كذلك «رئيس سلطان الهواء» وهى تسمية وردت فى الرسالة إلى أهل أفسس حيث قيل :

«رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الآن من أبناء المعصية» (أف ٢:٢)

ويسمى فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس باسم «إله هذا الدهر» حيث يقول :

«الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين . لألا يضئ لهم إنارة إنجيل مجد المسيح» (٢كو ٤:٤)

ويذكر بولس الرسول كذلك اسم «بليعال» فى رسالته الثانية إلى أهل كرنثوس فيقول :

«أية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال»
(٢كو ٦:١٤ ، ١٥)

ومن أسماء الشيطان التى ذكرها بولس كذلك اسم «سلطان الظلام» حيث قال :

«فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاه العالم على ظلمة هذا الدهر على أجناد الشر»

(أف ٦:١٢)

ومن الأسماء المشهورة للشيطان أيضا اسم «المضل» واسم «التنين» وأسم «الحية القديمة» وهى أسماء تدل على القوة والخبث والدهاء والجهاد فى سبيل الشر والإغواء كما يعرف أيضا باسم «سطانائيل» واسم «لسقورس» (٣) . وقد ذكر الشيطان - كذلك - فى سفر الرؤيا المنسوب ليوحنا (إصحاح ٩) فى نبؤة «هرمجدون» الخاصة بنهاية العالم التى يكون «ملاك الهاوية» مشرفا على تنفيذها بالوصف الوارد فى السفر من دمار وخراب وعذاب دائم مدة خمسة أشهر ، ويذكر السفر من أسماء الشيطان ، عدا لقب ملاك الهاوية ، اسم «أبدون» بالعبرية . واسم «أبوليون» باليونانية .

* * *

★ حياة الشياطين ومملكتهم

فى المعتقد الشعبى الدينى يتوازى وجود العالم الخفى - غير المتطور- مع العالم المادى المحسوس ، ولا يمنع خفاء هذا العالم من تقسيمه إلى مدن وممالك يعيش بها الجن والشياطين تحت قوانين تنظيم حياتهم التى تشبه حياة البشر إلى حد بعيد .

«فكما لنا معشر الآدميين دول وممالك مقسمة إلى طبقات وطوائف موزعة عليها الأعمال وأوجه النشاط التى تتطلبها الحياة ، فكذلك الشياطين والأبالسة لهم ملوكهم وأمراؤهم وحثالتهم ، وكلهم من الأرواح الشريرة الخبيثة الذين يدينون بالولاء والطاعة لزعيمهم الأكبر وملك ملوكهم الشيطان الرجيم» (٤) .

وينقل صاحب كتاب «السحر» عن «سى . لا مبروزو» ما معناه أن لدولة الشيطاين سبعة ملوك ينفرد كل منهم بحكم جميع أنحاء وأفراد الدولة والتصرف فى أمورها يوما فى الأسبوع ، وهم :

(ميمون) ليوم السبت ، و(فاركان) ليوم الأحد، و(أركا) ليوم الاثنين، و(سماكس) ليوم الثلاثاء ، و(مودياك) ليوم الأربعاء ،

و(سوث) ليوم الخميس ، و(سارابوترس) ليوم الجمعة . ولكل ملك من هؤلاء رئيس وزراء وقواد وجنود .

ومن المعتقد فيه أن هذه المماليك والمدن والمستعمرات موجودة فى كل مكان فى العالم ، لكنها توجد فى الصحارى وعلى سطح المياه فى البحار والمحيطات وقيعان الأنهار والجزر والكهوف والجبال . بل أن من المعتقد أيضا أن الشياطين والجان تشاركنا عالمنا المعمور ومدننا وبيوتنا ، وهم «يشعرون بعالمهم كأنه محسوس ، فلهم منازلهم ومدنهم وزراعتهم إلى غير ذلك ، ولهم تاريخهم وعقائدهم وأحزابهم وشعوبهم وملوكهم»(٥) . ويذهب البعض إلى أن الشياطين والجن تفضل بعض الأماكن على سواها. فهى أميل إلى سكنى الأماكن الخربة أو المهجورة المظلمة ومنها أماكن النجاسات كدورات المياه أو سكنى المقابر والصحارى والجبال .

وهم يتناسلون ويتزوجون ويعملون ويأكلون ويشربون تماما كالبشر ، ولهم أصل ينتمون إليه ، فكما ينتمى البشر إلى «آدم» المخلوق من الطين، ينتمى الشياطين والجن إلى «سموم» أو لمن خلق من النار . وقد حدث على قول «السيوطى» فى لقط المرجان ، إنه : «لما خلق الله

سموما أبا الجن ، وهو الذى خلق من مارج من نار ، قال له تعالى : تمنَّ ، فقال : أتمنى أن نرى ولا نرى وأن نغيب فى الثرى ولا يموت كهلنا حتى يعود شابا » ويذهب ابن يتمية إلى أن الشيطان هو أصل الجن كما أن آدم هو أصل البشر (٦) .

والأحاديث التى تدل على أن للشيطان حياة كحياة البشر يأكل فيها ويشرب ويبول ويرتدى الثياب كثيرة ، منها ما رواه البخارى حين قال : «ذكر عند النبى (ص) رجل فقيل : ما زال نائما حتى أصبح ما قام إلى الصلاة ، فقال : بال الشيطان فى أذنه» (٧) .

وعلق العسقلانى على هذاالحديث بقوله : «واختلف فى بول الشيطان، فقيل : هو على حقيقته . قال القرطبى وغيره : لا مانع من ذلك، إذ لا إحالة فيه لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح فلا مانع أن يبول ، وقيل هو كناية عن سد الشيطان أذن القائم عن الصلاة فلا يسمح الذكر . وقيل : معناه أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر . وقيل هو كناية عن إزدرآء الشيطان به . وقيل : معناه أن الشيطان قد استولى عليه واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول ، وقيل : هو مثل مضروب للغافل عن القيام بثقل النوم كمن وقع

البول فى أذنه فثقل أذنه وفسد حسه .

ومنها ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى عن كيفية أكل الشيطان فى حديث عن النبى (ص) قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرف فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» .

ويرتدى الشيطان نعلاً واحدا فى قدمه اليسرى ، يقول السيوطى فى لقط المرجان فى حديث عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال : لا يمشى أحدكم فى نعل واحدة ، فإن الشيطان يمشى فى نعلٍ واحدة» .

ولا بليس أولاد من الذكور والنبات ، فمن الذكور على ما روى مجاهد والشلبى فى آكم المرجان . هم خمسة لكل واحد منهم عمل موكل به وهم :

شبر : وهو صاحب المصائب بين الناس يدعوهم إلى الجهل والتعصب.

أعور : وهو صاحب الزنا ، يغوى الناس ويفتنهم بما يزينه له حتى يوقع بهم فيه .

مسؤط : وهو صاحب الكذب والنفاق والمداهنة والغرور .

داسم : وهو صاحب العيوب ، يبرزها للرجل فى أهله وما هى بعيوب.

زلبنور : وهو صاحب السوق ينصب فيها خيمته ويركز أعلامه ليوقع بين الناس بالدس والخصام .

أما بناته فاشهرهن : «إيليت» أو «ليليت» ثم «ذات المحاسن» .

وعلى خلاف الشائع فى الإسلام والمسيحية نجد «التلمود» أحد كتب اليهودية . يذكر أن الشياطين من نسل آدم، وأنهم يطيرون فى كل اتجاه . وأنهم يعرفون المستقبل باستراق السمع ، ويأكلون ويشربون مثل الإنسان، وأن الشياطين الذين هم من نسل آدم أنجبهم آدم بعدْ أن لعنه الله . ورفض هو أن يجامع زوجته حواء حتى لا ينجب منها ذرية تعيسة . فجاءت له شيطانة أسمها «ليليت» كان يأيتها مدة ١٣٠ سنة فولد له منها شياطين .

ويذكر التلمود بعد ذلك إن «ليليت» قد عصت زوجها «آدم» فعاقبها الله بموت أولادها . فهى ترى كل يوم مائة من أولادها يموتون أمامها وهى تعوى كالكلاب ويصحبها مائة وثمانون ملكا من الأشرار .

أما التكوين الخلقى للشياطين فيقول فيه التلمود أن الشياطين على أنواع ، وإن بعضها قد خلق من الماء والنار ، وبعضها الآخر قد خلق من الهواء فقط . والبعض الآخر من الطين فقط . أما أرواحهم جميعا فهى مخلوقة من مادة تحت القمر لايصلح الا لضعها .

ويأتى التلمود على ذكر مساكن الشياطين وأعمالهم فيقول أن بعض الشياطين يسكن الهواء ، وسكان الهواء من الشياطين يتسببون فى الأحلام التى يراها الإنسان فى نومه . وهناك من الشياطين من سكن قاع البحر ، وهؤلاء إذا تركوا لشأنهم تسببوا فى خراب الأرض . واخيرا فمن الشياطين من يسكن أجساد اليهود الخطاه .

وعن العقائد التلمودية آمن اليهود بعدد من الأفكار والمعتقدات منها إن الشيطان يحب الرقص بين قرنى الثور فى المربط . لهذا يمنع اليهود أنفسهم من ركوب الثيران المربوطة فى الاكشاك . كما يمتنعون عن السلام ليلا فى الطرقات خوفا من أن يسلموا على الشياطين .

وهم يعتقدون أن الأرواح الشريرة عموما ، والشيطان خاص ، تستريح على الأيدى القذرة إلى الصباح لذا يؤكدون على ضرورة غسل الأيدى عند

كل فجرا أو قبل النوم . وهم إذا أرادوا الشرب من إنا ء كان عليهم أن يريقوا منه بعض المـاء قبل الشـرب للنجاة مما رشفت منه الأرواح الشـريرة .

ومن الثابت أن مصدر العقائد التلمودية عن الشيطان هو يهود السبى البابلى . وعنها أخذت عقيدة إمكان الزواج بين البشر والجن وعقيدة خلق الله لجنس آخر وسطا بين البشر والملائكة هم أبنا ء الشياطين(٨) .

* * *

★ عرش إبليس

في المعتقد الشعبى ، كما هو الحال فى المعتقد الدينى أن عرش الله على المـاء . فقد جاء فى صحيح مسلم أنه : «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعشره على الماء (٩). وفى المعتقد الدينى ، دون المعتقد الشعبى ، أن عرش إبليس كذلك على الماء !! ففى حديث أخرجه مسلم والبخارى ورواه جابر عن النبى (ص) قال :

«إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه ، فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنه ، يجيئ أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما ضعت شيئاً ، ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين مرأته ، فيدنيه منه ، ويلتزمه ، ويقول نعم أنت» .

وقد شطح الخيال ببعضهم حتى قال إن عرش إبليس ومملكته فى قاع المحيط الأطلسى . وعلى وجه الدقة فى مثلث برمودا المسمى لغموض الحوادث التى وقعت فيه «مثلث الشيطان» فأنهم يعتبرونه المقر المركزى للشيطان الأعظم «إبليس» حيث توجد عدة مقار أخرى لإمراء

ووزراء الشيطان منها مثلث فرموزا - مثلث الرعب - الذى لا يقل فى غموضه عن غموض «مثلث الشيطان» .

وقد شطح الخيال ببعضهم أيضا فقال أن المسيخ الدجال سيخرج عند ظهوره فى العالم من مثلث برمودا ، وأشتط الخيال بهم حتى بلغ الشطط مداه فقالوا أن معظم حوادث اختفاء الطائرات والسفن والبشر فى هذا المثلث تتم بمعرفة وأمر الشيطان ! وأن كافة حوادث الاختطاف التى اختلفت السفن والطائرات بعدها دون أن تترك خلفها أى أثر قام بها جنود الشيطان التى تمثلت للبشر فى صورة الأطباق الطائرة والسفن الفضائية الدائرية التى خرج منها بعض الكائنات التى تشبه البشر ! وما هم ببشر وإنما هم الشياطين أو الجان !!

على أن عرش إبليس لم يحدد جغرافيا فى المعتقد الدينى وأسانيده المعتمدة ، وفى نفس الوقت لم يقل العمل كلمته الأخيرة فى الظواهر العجيبة التى تقع فى مثلث برمودا «مثلث الشيطان» أو فى «مثلث فرموزا» - مثلث الرعب . وإلى أن يحدد العلم موقفه النهائى لا نستطيع أن نترك العنان للخيال الدينى فيشطح بنا مثلما شطح بغيرنا دون سند يعتد به من العلم .

غير أن هذا التقابل الملحوظ بين وجود عرش الله على الماء مثل عرش إبليس هو من التقابلات الجديرة بالتأمل والبحث لاستنباط دلالاتها «الدمنولوجية» وعلاقتها بتصور الشيطان وموقفه من الإله فى اللاشعور البشرى . والجذور القديمة لهذا التصور وهى جذور ترجع إلى أساطير التكوين والنشأة المائية للكون .

* * *

★ جنود إبليس

الجنود المادية للشيطان تتمثل فى إنس والجن معا .

وللشيطان على ذلك جنوده الأخرى ، غير المادية ، فجنوده المعنوية لا تقاد يبلغها الحصر ومنها كافة الصفات السيئة كالكبر والنفاق والرياء والكذب . وأعظمها جميعا «الغرور» بأى فضل أو تميز على أن ينسب هذا الفضل للإنسان ذاته دون واهب الفضل الحق . وتلك أول طريق المعصية التى سلكها الشيطان .

أما أولياء الشيطان فهم مثل جنوده لا يبلغهم الحصر وأهم صفاتهم إنكار الوجود الإلهى وتعليل العالم والوجود بغير موجده :

«إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» (٢٧ : الأعراف)

ولو تأملنا ما للشيطان من الاجناد المعنوية لأمكننا أن نفهم ما جاء فى الخطاب القرآنى فى قوله :

«وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم

فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ» (٢٢ : إبراهيم)

وهو خطاب يحدد مسئوليته الشيطان ووظيفته .

وهى الدعوة فحسب ، أما العمل فوزره يقع على نفس مرتكبه . فالإنسان هو الفاعل للشر وما دور «إبليس» سوى تزيين الفعل ليدل على نفسْ مرتكبه، أى على صلاح النفس البشرية واستعدادها للإنحراف وميلها إلى الشر . فإن حادت عن السواء إلى الإنحراف فهذا عملها الذى تُسأل عنه وتعاقب عليه وحدها .

فالشيطان نفسه يتصل من فعل الإنسان ويحدد مسئوليته فى «الأغواء» فقط أما الفعل ذاته فهو فعل الإنسان ، ولا يُسأل عن فعل البشر سوى البشر أنفسهم . لذا جاء التقرير القرآنى وإلا على هذا المعنى فى قوله :

«كمثل الشيطان إذ قال للإنسان الكفر فلما كفر قال أنى برىء منك أنى أخاف الله رب العالمين» . (١٦ : الحشر)

فالأعمال تصدر عن نفس فاعلها ، والنفس تتقبل من الأعمال ما تؤهلها له صفاتها . وكل عمل إبليس وجنوده المادية والمعنوية هو

الوسوسة للنفس بأعمال تتقبلها تلك الصفات ، أو هو الوسوسة للنفس لدفعها إلى تحويل صفاتها الأصلية إلى أعمال .

أما شياطين الإنس فهم «أولياء الشيطان» أو من لازمهم الشيطان حتى أصبح قرينا لهم لا يفارقهم طرفة عين . فهو يملى عليهم وهم يتبعون ما يمليه فى أعمالهم وأفكارهم . وهم بهذا المعنى من جنود إبليس على أى وجه من الوجوه .

* * *

★ وسائل إبليس

فإذا كان لابليس وظيفة محددة على النحو الذى اسلفناه . فلابد له من وسائل شتى للقيام بمهام تلك الوظيفة ، وقد جرت تلك الوسائل فى المعتقد الدينى من الشيوع حداً أجراه أهل المعتقد على سبيل التحرز بعد العلم بتلك الوسائل والمداخل الشيطانية التى منها :

النزغ الشيطانى :

وهو وسيلة من وسائل الشيطان هدفها الإثارة الوجدانية الإنفعالية التى تؤدى إلى فقد العقل . أو فقد السيطرة على العقل ، ومن ثم فقد السيطرة على الفعل الإنسانى فيأتى الفعل مخالفا للعقل والدين ، وهى وسيلة يستخدمها إبليس عن بعد . دونما لمس أومس مباشر ودونما شعور من الإنسان ، بل يتم ذلك بخواطر مهيمة للنفس والوجدان ومثيرة للانفعال والغريزة .

الهمز الشيطانى :

وهو وسيلة أخرى ، يدلك بها الشيطان على «طريقة فعل» المعصية بعد الوسوسة بها والحض عليها . وبعد تزيد نهالك بكل الوسائل الممكنة والحيل المتاحة .

الوسوسة الشيطانية :

هدفها المعصية ، وأنواعها شتى ، وغرضها كل أنواع الموبقات لامعصية واحدة يتكرر إرتكابها أو يداوم عليها الإنسان . فادمان المعصية الواحدة المتكررة وسوسة من النفس ذاتها ، وتقتصر على عمل أو معصية واحدة . على خلاف وسوسة الشيطان بارتكاب سائر الموبقات .

المس الشيطانى :

منه ما يحدث بسبب الوسوسة فحسب فيسبب عمى البصيرة تمهيداً للوقوع فى المعصية والإنقياد للغواية . ومنه المس الجسدى حيث يستحوذ الشيطان على الجسد فيصرعه ، فالمس الأول (وجدانى) والمس الثانى (جسدى) أهم أعراضه الصرع وفقد الإنسان السيطرة على سائر ملكاته .

النفث :

يختص بالهام الفن ، خاصة ما يلقيه الشيطان من نفثات شعرية فى النفس الشاعرة .

التنزل :

نوع من الحضور الشيطانى يدل عليه الخطاب القرآنى فى قوله :

«هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم»

(٢١ : ٢٢ الشعراء)

الإستهواء :

وهو تأثير شيطانى فيمن يميلون للهوى ويدل علمية الخطاب القرآنى فى قوله :

«كالذى أستهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه»

(٧١ : الأنعام)

*   *   *

★ إبليس : الروح المتمرد

لم تتغير صورة إبليس الروح المتمرد فى عالمنا كثيرا عن الصورة التى عرفناها له قديما .

فهو أما أن يكون الشخصية التى ترمز إلى الشر فى الديانات الكتابية بتمردها على الإله ، أو أن يكون رمزا غير مشخص أبدا لذا يفرق البعض بين «وصف الشيطان» وبين الشيطان نفسه . فيأتى هذا التمييز ليجعل من معنى الشيطنة معنى أكثر إتساعاً وشمولا من المعنى الذى يدل عليه لفظ «الشيطان» فى ذاته .

على أن هذا التفريق من وجهة النظر الدينية عموما ، والإسلامية خصوصا ، له دلالة بالغة الأهمية . فالشيطان فى ذاته هو «إبليس» الذى تمرد على طاعة الله دون أن يكون هذا التمرد متضمنا الخروج - فى معناه - على أمر الله . فإبليس هنا هو شيطان من الجن فى رتبة الملائكة ، لكنه يتميز عن الملائكة فى أنه خلق مختارا وله بمقتضى هذا الاختيار أن يتمرد على «الطاعة» دون أن يكون تمرده متضمنا الخروج عن أمر الله أو بغير إرادته الإلهية .

أما «وصف الشيطان» فيطلق على الجن والإنس معا ليدل على وظيفة محددة هى العصيان أو الإفساد أو الشر عموما . دون أن يكون الوصف علما على شخص محدد بعينه ، فالوصف ينطبق على الإنسان وما سواه من كائنات الغيب ما دام الوصف جامعا لهما ودالا على الاشتراك فى وظيفة واحدة هى العصيان والشر والغواية والإفساد .

وسواء كان إبليس من الجن أو الملائكة فإن عصيانه الأمر الإلهى بالسجود لآدم هو عصيان لأمر الله . فكان إبليس بذلك أو العصاه ، ولا يمكن الاحتجاج فى هذا المقام - دفاعا عن إبليس - بأن الأمر بالسجود كان للملائكة دون الجن :

«فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه»

(٥٠ : الكهف)

«قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» . (١٢ : الأعراف)

فالسبب فى العصيان وعدم الطاعة هو «المناقشة» أو هو «التفكير» أو مراجعة الأمر بالسجود بعد «القياس» إذ الطاعة تستوجب عدم المناقشة أو التفكير فى الأمر الإلهى . فالتفكير والمناقشة

والمراجعة كلها أمور يترتب عليها الاختيار بين الطاعة والعصيان ، فإن دخل القياس فى مراجعة الأمر الإلهى . كانت كفة العصيان أرجح دون التسليم والطاعة .

وليس الأمر فى مسألة عصيان إبليس هو مجرد التمرد على الأمر الإلهى . بل هو مسألة تتجاوز التمرد على الله إلى ما أبعد من ذلك ، أعنى محاولة إبليس أن يجعل من نفسه ندا ومراجعا لله . وهو هنا يريد أن يتجاوز مقام المخلوق إلى مقام الندية الألوهية مع الله من خلال «القياس» ..

فهو عندما يقيس ويقارن طبيعته النارية بطبيعة آدم الترابية ، يستنكر على النار أن تسجد للتراب وهى أشرف منه عنصراً ، ويرى إن الأمر الإلهى يتضمن الخطأ لأنه يريد من الأشرف عنصرا أن يسجد للأحط عنصرا .. لهذا يستنكر إبليس على الله أن يصدر منه مثل هذا الأمر :

« ءأسجد لمن خلقت طيناً » (٦١ : الإسراء)

وهو «يرى» أن صدور هذا الأمر يتجاهل التميز الذى للنار على التراب ، فالخطأ والتجاهل هما المسوغان لإبليس ، ليس فقط للتمرد

على الأمر الإلهى . بل أيضا للتمرد على المرتبة التى لإبليس نفسه بين الملائكة، فهو بعد اكتشاف هذا الخطأ . «يرى» إن بإمكانه تجاوز مقام العبودية إلى مقام الندية . ولذا فقد أعطى لنفسه حق المناقشة والمراجعة .

ومن المعلوم الثابت فى المعتقد الإسلامى إن كل مخالفة أو خطيئة أو عصيان يمكن أن تغتفر ، وإن كانت الخطيئة هى الكفر ذاته ، الا الشرك .. وهنا أشرك إبليس ، وهو فى شركة لا يختلق - مع الله - آلهة أخرى، بل هو يجعل من نفسه ندا فى مرتبة الالوهيه مع الله ، بل هو يجعل من نفسه ندا فائق القدرة حتى على الله . وهذا ما سوغ له مناقشته ومراجعته أولا . ثم «تحديه» أخيراً :

«قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم» .

(١٦ : الأعراف)

وهذا تحدٍ سافر يتضمن الإصرار على صحة «الرؤية» التى ترى النار أشرف من الطين ، لأنه بمقتضى هذا التحدى سيجد إبليس نفسه مدفوعا إلى قوله :

«قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون» (٧٩ : ص)

وهو يطلب ذلك إصرارا منه على إثبات وجهة نظره فى تفوق عنصره على العنصر البشرى ، وهو لن يفعل ذلك على سبيل إثبات وجهة النظر فحسب ، بل أنه سيفعله إمعانا فى إثبات الخطأ الإلهى . أو التشكيك فى الحكمة الإلهية ، لأن إثبات هذا الخطأ هو ما يدعم موقف إبليس فى شعوره بوجوب تجاوزه لمرتبة العبودية إلى مرتبة الندية . وهو يرى أن ما سيرتكبه آدم وذريته من أخطاء وشرور هو الدليل على خسة عنصره الترابى ، والأمر هنا ليس مجرد أمر المفاضلة بين عنصرى النار والتراب ، إنما هو محاولة إبليسية للتشكيك فى حكمة الله . إذ ما جدوى أن يخلق الإله من يعلم مسبقا أنه سوف يفسد فى الأرض ؟ فالعلم بفساد آدم لفساد طبعه وإنحطاط عنصره كان من المسائل التامة فى علم إبليس والملائكة . وقد تساءلت الملائكة عن ذلك بقولها :

«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون» . (٣٠ : البقرة)

وكأن التساؤل عن خلق آدم ليكون خليفة لله كان يتضمن الدهشة - على أقل تقدير - أو الإستنكار كما أسفر عن ذلك موقف إبليس لسبق علمه بفساد العنصر الترابى وعدم صلاحيته للخلافة الإلهية من جهة

ولاستحالة تحقق الغرض من هذا الخلق بسبب فساد الطبع الآدمى من جهة أخرى ، أضف إلى ذلك أنه قد وقر فى ظن إبليس والملائكة أنه لا حاجة بالإلهة إلى خلق آدم ما دامت الملائكة تسبح وتقدس . أى أنها تقوم بذاتها وهى أشرف من سواها بوظيفة العبادة .

والتشكيك فى الحكمة الإلهية يلى الاعتراض على المنطق الإلهى ورفضه ، لذا يقول إبليس فى معرض ما سفعله إثباتا لعدم استحقاق آدم وذريته للخلافة :

« ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١٧ : الأعراف)

فهذا المطلب الشيطانى يدل على طبع آدم وذريته ، وكأن إبليس يقول هنا : هل يمكن أن يكون خليفة للإله من لايمكنه حتى أن يشكر الإله فضلا عن أن يعبده على أفضل وجه. وفضلا عن أن يكون خليفة له؟

كان موقف إبليس إذن من الإله هو العصيان والتحدى والإعتراض على المنطق الإلهى والإمتناع عن تنفيذ الأمر الإلهى استناداً إلى «رؤية شيطانية» يراها إبليس فى طبيعة آدم وذريته من بنى البشر . فماذا كان موقف الإله من إبليس ؟

لقد طلب إبليس من الإله أن يمهله حتى يثبت وجهة نظره . وقد أمهله الإله بالفعل :

«قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم»

(٣٧ ، ٣٨ : الحجر)

أمهله الإله إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم القيامة ، وهكذا تتسع المهلة إلى يوم غير معلوم للبشر . وقد تتسع لتشمل تاريخ الحياة على الأرض عموما ، وعندئذ يصبح هذا التاريخ الدينوى - من وجهة نظر دينية - هو تاريخ الصراع الكونى الدائر منذ الأزل والذى سيظل قائما إلى الأبد .

لكن إلى أى نتيجة سوف ينتهى هذا الصراع ؟

وما هو موقف الإله من «رؤية إبليس» بعد انتهاء الصراع ؟

لقد مُنح إبليس المهلة لسبب هو :

«وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور» . (١٥٤ : آل عمران)

ولسبب آخر - أيضا - هو :

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» (١٤٣ : آل عمران)

فالمهلة التى تمتد لتشمل تاريخ الحياة الإنسانية قد استحالت إلى «اختبار» تتحدد وفقا لنتائجه نهاية المشكلة ، على أن الله بصفته «العليم» يعلم مقدما ما سوف تنتهى إليه الحال :

«ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين» (٢٠ : سبأ)

تنتهى المهلة إذا والناس بين فريقين فلا تنتهى الحياة الدنيا إلا فريقا منهم فى الجنة والآخر فى النار . وقد تقرر ذلك مسبقا كأثر من آثار العلم الإلهى .

كما تقررت العداوة بين الإنسان والشيطان ، مسبقا كذلك ، فى العلم الإلهى والخطاب القرآنى :

«فقلنا يا آدم إن هذا عدولك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا» (١١٧ : طه)

ومن الثابت إن الجنة المعينة هنا ليست هى جنة الخلد ، إذ كيف يجوز للشيطان دخول جنة الخلد لممارسة وظيفته فيها ؟ ثم أن جنة لا يدخلها أحد إلا بعد قيام الساعة ، بعد الحساب . ومن المعلوم ، لغة ، أن الجنة لديالعرب تعنى الحديقة . وقد ورد هذا المعنى - الأخير - فى الخطاب القرآنى مما يدل على أن جنة آدم كانت فى الأرض وليست فى السماء كما هو الشائع فى المعتقد الشعبى .. وسوف يستمر عداء الشيطان للإنسان فى نفس الجنة ، على الأرض ، إذ الأرض - كذلك - هى دار التجربة والاختبار الذى تقرر مسبقا لآدم أن يخوضه وذريته مع الشيطان .

أما الاحتجاج بالخطاب القرآنى فى قوله :

«قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين» (١٣ : الأعراف)

فليس فيه دلالة على هبوط إبليس من جنة الخلد خصوصا ، وإنما جاء هبوطه فى النص تعميما فيجوز أن يحمل على أوجه شتى من معان الهبوط . كأن يقال أن هبوط إبليس كان هبوطا فى المنزلة العليا التى كانت له بين الملائكة فتردت مكانته وقيمته بعد العصيان .

* * *

دور إبليس إذن وعلى العموم هو «الشر» . والإفساد والتمرد على النواميس الثابتة والخروج عليها ومناقضتها قولا وعملاً . وهو يحاول أن يجر معه العالم كله إلى مثل فعله وتمرده .

ودوره فى المعتقد الإسلامى ، على الخصوص ، هو الإغواء . ومحاولة الاستيلاء على العالم والبشر ليكونوا من جنوده وأتباعه وعباده أيضا ، فليس من اختلاف أصل وظيفة «إبليس» بين سائر عقائد البشر العليا ، وخاصة الديانات الكتابية ، وإذا كان ثمة اختلاف بين شتى العقائد . فهو اختلاف فى «صورة إبليس» أو اسمه وليس فى وظيفته .

على أننا لن نجد بين سائر عقائد البشر ، أيا كانت ، عقيدة لا مكان فيها لإبليس باعتباره الرمز الأشهر للشر فى العالم . وسنجد إن الشر فىالعالم وقد رمز إليه شخص إبليس ، كان يقوم بوظيفته على الأرض على أكمل وجه حتى أصبح العالم كله مملكته التى يعبد فيها ، وإن تلك العبادة تتدرج على مادر التاريخ لتوازى فى تطورها تطور العقائد الدينية عموما .. لذا تتنوع تجلياتها الفلسفية أو الدينية فى صور شتى يمكن أن نرصدها على مدار التاريخ لدى عدد من الشعوب فى أماكن متفرقة من العالم . عندئذ يمكننا التحقق من صدق الكتب المقدسة التى أخبرتنا بأن الشيطان هو رئيس هذا العالم وإله هذا الدهر .

* * *

- الفلسفة الشيطانية .
- شبهات إبليس .
- أولياء الله .. أولياء الشيطان .

★ الفلسفة الشيطانية

عندما نستقرئ تاريخ الفكر الفلسفى الذى قامت عليه العصور الحديثة فى عالمنا . نستطيع أن نؤكد بكل ثقة أن «روح التمرد» هى الروح الغالبة على هذا الفكر الذى قام عليه العالم الحديث مفوضا بذلك كلى أسس وأبنية العالم القديم وأفكاره الدينية .

فالعالم القديم بكل أبنيته ومؤسساته لم يقم إلا على الفلسفة الدينية التى تتبنى وجهة نظر دينية فى تفسير الوجود . وأيا كان الدين السائد فى المجتمع ، فإن وجهة النظر الدينية التى كان يتم تفسير الوجود بها . وتفسير علاقة الإنسان بالقوى الأخرى فى الكون ، هى التى كانت تشكل الأساس البنائى لكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العالم القديم .

ولقد جاء الفكر الفلسفى الحديث ثورة كاملة على القديم كله ، وخاصة الأساس البنائى لهذا القديم . وهو الدين ، لذا يرى أنصار المثالية الجديدة عموما . وأنصار الدين خصوصا أن : الفكر البشرى السائد فى عالم اليوم كله تتخلله التعاليم الشيطانية التى بثها إبليس

من خلال عقول العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهم يرون - لذلك - أن إبليس نفسه هو صاحب تلك الفلسفات الشيطانية التى قوضت العالم القديم وأسسه . والفلسفات التى دان بها العالم وهو يتنكب غاية هى هدف إبليس منذ بدء صراعه مع الله .

لذا يقولون أيضا أن ظهور إبليس فى العالم جاء مختلفا عن ظهوره فى العصور الدينية القديمة . إذ كان ظهور إبليس فيما مضى محصورا فى مجال السحر والدين ، وكان نشاطه محدوداً فى مجالات السحر والدين فحسب ، أما اليوم فيمكن أن يقال أن ظهور إبليس ونشاطه يشكل بحق غزوا واجتياحاً كاملاً للعالم الحديث . إذ ظهر إبليس فى عالمنا اليوم من خلال الفن والأدب أولا ، ثم من خلال العقل المبدع للعلماء والفلاسفة الذين أشاعوا فلسفة إبليس المتمردة . ولا يستثنى من ذلك بعض تيارات التصوف أو الفلسفات الدينية ، فقد تمكن إبليس بالفعل من السيطرة على العالمَ وقيادته وفقا لفلسفة الشيطانية المضادة للإله . فكانت فلسفة إبليس وأفكاره وفنونه هى الوجه العلنى لنشاط الشيطان فى العالم . فما هى تلك الفلسفة الشيطانية ؟

تقوم فلسفة إبليس على مجموعة أفكار تحاول إثبات تهافت وتناقض فكرة الألوهية وتهدف إلى تشوية فكرة الإله وصورته ذاتها وتهافت منطقة والطعن فى حكمته والتشكيك فى عدله وكماله ، كان ذلك هدف إبليس فى كافة الديانات الكتابية . وكان ذلك الهدف معلوما لدى كافة مدارس الفكر الدينى فى الإسلام والمسيحية ، قديما وحديثا ، وقد رصد أحد رجال الفكر الدينى المسيحى الحديث مبادئ وأفكار إبليس المضادة للإله على النحو التالى فقال أن مزاعم إبليس فى الألوهية تنحصر فيما يلى (١٠) :

★ الله سادى كونى :

لأنه فى ظن إبليس يحرم الكثير حتى يستمتع بمحاولات العبيد لإرضاءه بالإمتثال لكثير من المبادئ والقواعد والعقوبات ، أنه سادى مستبد ، طاغية ، ظالم ، يسعده تخييب آمال الإنسان وتقييده وحرمانه من المتع والملذات فى حين أن الطبيعة البشرية ذاتها مركبة على الاستعداد الشهوانى لاستخدام تلك المتع ، فلماذا تم تركيب تلك الطبيعة فى الإنسان على هذا النحو إذا كان الغرض هو عرقلتها بعد ذلك عن تحقيق أغراضها ؟!

★ الله كاذب :

يضيف إبليس إلى صفة التناقض فى الإله صفة الكذب ويدلل عليها بأن الله قد أخبر أن من يأكل من الشجرة المحرمة .. موتا يموت ، بينما الإنسان خالد بالروح لايموت . فإذا كان الله يكذب فما هو الحق ؟!

★ الهدف الأنانى لله :

لماذا خلق الله الإنسان ؟ ولماذا حرم عليه الأكل من الشجرة ؟

يقول إبليس : خلق الله الإنسان ليظل عبدا له ، يستعبده ويتسلى بطاعته . ويلتذ بعبوديته ، وحرم عليه الأكل من الشجرة حتى لا يصبح مثل الإله عارفا الخير والشر (تك ٣ : ٥) والله لايريد للإنسان أن يقوى ويصبح إلها . بل يهيده عبدا مطيعا يرضى ساديته وظلمه وتحريماته .

فإذا عصى الإنسان وأكل من الشجرة أصبح إلها أو مثل الإله وكتب له الخلود وتحرر من ذلك الله - أى أستقل وأخذ طريق التحقق الذاتى بعيدا عن السيطرة الإلهية . فالسيطرة الإلهية لن تحقق قصد هذه الحياة الحاضرة الجسدية وإلا كان الله أنانيا لأنه جعل من هدف الخلق هدفا لمصلحة الله وليس لمصلحة الإنسان .

★ لا عبادة بلا أجر :

يتساءل إبليس : هل يوجد من يعبد الله مجانا ؟ بلا هدف ولا أجر ولا طمع ؟ إذن فما جدوى تلك العبادة ؟ وهل يقبل الله أن يعبد على هذا النحو وهو يعرف أن الطمع من طبع الإنسان ؟ دخل إبليس الحضرة ..

«وكان ذات يوم أنه جاء بنو الرب ليمتثلوا أمام الرب وجاء إبليس أيضا فى وسطهم . فقال الرب للشيطان من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها . فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مثله فى الأرض رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر . فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله» . (أيوب ١ : ٦ - ٩)

ومعنى كلام إبليس أن من كان حراً لا يمكن أن يخدم الله أو يعبده أو يتقيه بلا سبب ، بلا أجره إذا المرتزقه وحدهم هم الذين يعبدون ويخدمون لأنهم يطمعون فى عطايا الله ووعوده وفراديسه . ذلك أن الطمع يحقق الطبيعة الإنسانية ذاتها فى توجهاتها لتحقيق ذاتها وأطماعيها . تلك الطبيعة تميل إلى ذاتها وصفاتها لا إلى الذات الإلهية ، والشيطان هو الذى يحقق مطامع تلك الطبيعة فهو أولى بذاته من الذات الإلهية بمرتبة الألوهية .

★ الضيق .. يسبب الكفر :

وقال الشيطان للرب فى مناقشته لقضية أيوب وهى قضية الإيمان :

«اليس إنك سيجت حوله وحول بيته وحول ماله من كل ناحية ؟ باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض . ولكن أبسط يدك الآن ومس كل ماله فإنه فى وجهك يجدف عليك» (أى ١ : ١٠-١١)

هنا يزعم الشيطان إن الإيمان ينتج عن نعم الله ، وإن تلك النعم هى أجر الإيمان والعبادة . ولولا هذا الأجر وتلك النعم لكفر الإنسان . إذ ما الذى يجعل الإنسان يؤمن لو لم ينعم عليه ربه بأجر أو فضل ؟

★ الحياة هى كل شىء :

هنا .. يزعم الشيطان إن الإنسان ليس لديه شىء أعظم من حياته حتى إذا فقد كل شىء مثل أيوب . لذا قال الشيطان للرب بعد أن فقد أيوب كل شىء : **«قال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب . لأنه ليس مثله فى الأرض رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر. وإلى الآن متمسك بكماله وقد هيجتنى عليه لأبتعله بلا سبب. فأجاب الشيطان الرب وقال : «جلد بجلد» وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه . ولكن أبسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه فى وجهك يجدف**

عليك . فقال الرب للشيطان : ها هو فى يدك ولكن احفظ عليه نفسه فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردئ من بطن قدمه إلى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد »

(أى ٢ : ١-٨)

حدث ذلك بعد أن فقد أيوب ماله وبيته وأولاده فى اختبارات سابقة من الرب بعد نقاش مع الشيطان .. لكن نجح أيوب فى كافة الاختبارات ولم يسحظ حتى بعد أن وقع البلاء عليه هو نفسه وعلى جسده .

★ **الشيطان يضع المعجزات :**

هنا يزعم الشيطان أن المعجزة التى يفعلها الله تقع حسب رغبتهومصلحته لاحسب مصلحة العباد ويستدل بقول اليهود على انقطاع المعجزات فى قولهم : «**إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه ؟ وأين كل عجائبه التى أخبرنا بها آباؤنا قائلين : ألم يصعدنا الرب من مصر** » ؟ (قض ٦ : ١٣)

وكما يفعل الله المعجزات والعجائب يجرى الشيطان أيضا المعجزات والعجائب على يديه ويدى خدامه أيضا ، وفى سفر الخروج أن السحرة والأرواح الشريرة كانوا يجرون الآيات العجيبة (خر٧ : ٧، ٨،

١١) ويذكر الإنجيل ذلك معترفا به في (مت ٢٤ : ٢٤) وفي سفر الرؤية أن الشيطان نفسه قادر على عمل المعجزات . بل أنه سوف يعملها (رؤ ١٣ : ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠).

★ طريق الشيطان هى الفضلى:

هنا يؤكد الشيطان أن الإنسان يمكن أن يتنازل عن كل شئ حتى الإيمان وحتى روحه فى سبيل الدنيا ومطامعها فهو يغرى بها الإنسان لأنه قادر على منحها له وفاء بعهده على خلاف الله الذى لا يفى بوعوده . وهو يملك أن يحقق وعده لأنه يتسمى «بريئس هذا العالم» (يو ١٤ : ٣٠) ويسمى كذلك «إله هذا الدهر» (٢كو ٤ : ٤) . وهو «الروح الذى يعمل الآن فى ابناء المعصية» (أف ٢ : ٢) فيحقق لإتباعه وعوده لهم لماله من سلطة على العالم شريطة أن يتبعه الإنسان ويسجدله . فهو يغريه بذلك ولا يستثنى من محاولاتِ الإغراء تلك حتى الأنبياء أنفسهم وعليه يؤكد الشيطان أن طريقة هى الفضلى لأنها طريق الدنيا حيث لاغاية بعدها ولا هدف أيا كان .

* * *

★ شبهات إبليس

وعلى نفس الأسس والأفكار السالفة التى تضمنتها فلسفة إبليس والتى ذكرتها التوراة والأناجيل الأربعة . فى صورة مناظرات بين إبليس والملائكة . تأتى «شبهات إبليس» المعروفة فى الفكر الإسلامى والتى ذكرها «الشهرستانى» فى الملل والنحل(١١) . .

ويتضمن حوار إبليس والملائكة «شبهات إبليس السبع» وكلها تدور حول حرية المخلوق المبتلى إزاء أفعاله الخلقية المحاسب عليها ، ومدى نسبة هذه الأفعال إلى فاعليته ، والركائز التى تقوم عليها هذه المسئولية، وبناء على ذلك كله - ينتهى إبليس إلى - التشكيك فى ثبوت العدالة الالهية حيال مصير الكافرين والعاصين وأولهم إبليس .

ويتخذ إبليس - فى مناظرته للملائكة - من معصيته للأمر الالهى بالسجود لآدم أساسا ومثلاً لهذه الشبهات ، حيث يحاول جاهداً أن يثبت أن وقوع المعصية منه بتقدير الله عز وجل السابق لها ، حتى يوهم بأن جزاء الله بالطرد من رحمته وتخليده فى النار متعارض مع العدالة الالهية(١٢) .

ويورد «الشهرستانى» تلك الشبهات كما يلى :

«أنى سلمت أن البارى تعالى الهى واله الخلق، عالم قادر ، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته ، وأنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون - وهو حكيم ، إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة . قالت الملائكة .. ما هى ، وكم هى ؟

قال إبليس : سبعة :

١ - **الأول منها** - أنه قد علم - قبل خلقى - أى شىء يصدر عنى ويحصل منى ، فلم خلقنى أولا ؟ وما الحكمة من خلقه أياى ؟

٢ - **والثانى** - إذ خلقنى على مقتضى إرادته ومشيئته ، فلم كلفنى بمعرفته وطاعته ، وما الحكمة فى هذا التكليف . بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ؟

٣ - **والثالث** - إذا خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة، فعرفت وأطعت ، فلم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ وما الحكمة من هذا التكليف على الخصوص ، بعد أن لايزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى آياه ؟

٤ - **والرابع** - إذ خلقنى وكلفنى على الإطلاق ، وكلفنى بهذا التكليف على الخصوص ، فإذا لم أسجد لآدم ، فلم لعنتى وأخرجنى من الجنة ، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا إلا قولى : لا أسجد إلا لك ؟

٥ - **والخامس** - إذ خلقنى وكلفنى مطلقا وخصوصا فلم أطع فلعننى وطردنى ، فلم طرقنى إلى آدم حتى أدخل الجنة ثانيا ، وغررته بوسوستى، فأكل من الشجرة المنهى عنها . وأخرجه من الجنة معى فما الحكمة فى ذلك ؟ بعد لو منعنى من دخول الجنة لاستراح منى آدم ، وبقى خالدا فيها .

٦ - **والسادس** - إذ خلقنى وكلفنى عموما وخصوصا ، ولعننى ثم طرقنى إلى الجنة ، وكانت الخصومة بينى وبين آدم ، فلم سلطنى علىأولاده ؟ حتى أراهم من حيث لايروننى ، وتؤثر فيهم وسوستى ولا يؤثر فىّ حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن خلقهم على الفطرة دون أن يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين ، كان أمرى بهم وأليق ، ما الحكمة ؟

٧ - **والسابع** : سلمت هذا كله . خلقنى وكلفنى مطلقا ومقيدا ، وإذ لم أطع لعننى وطردنى ، وإذا أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى ، وإذا

عملت عملى أخرجنى ثم سلطنى على بنى آدم، فلم إذا استمهلته أمهلنى؟ فقلت «**انظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى الوقت المعلوم**» وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو أهلكنى فى الحال استراح آدم والخلق منى ، وما بقى شر ما فى العالم ؟ اليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من إمتزاجه بالشر ؟

وهكذا انتهى «إبليس» من ذكر حججه ثم أردف قائلاً للملائكة :

هذه حجتى على ما أدعيه فى كل مسألة ، وينقل الشهرستانى - هنا - قول شارح الإناجيل : فأوحى الله إلى الملائكة : قولوا له أنك فى تسليمك الأول أنى إلهك وإله الخلق غير صادق ولا مخلص . إذ لو صدقت إنى إله العالمين ، لما أحتكمت علىّ (بلم) . فأنا الله الذى لا إله إلا أنا . لا أسأل عما أفعل ، وجميع الخلق مسئولون» .

ويعلق صاحب كتاب «القضاء والقدر» على تلك الشبهات بقوله(١٣) :

«وعلى ذلك فقول واضعى الشبهات السبع إن رفض إبليس السجود لآدم ، لأنه لم يرد أن يسجد لغير الله زور وبهتان من ضع شياطين الأنس، ولم يستطع إبليس نفسه أن يزعمه أو هو لم يحدث منه ، ولكن

هذه الكذبة أضحت فى مجال الفكر البشرى (الأحرى الدينى) حجر الزاوية فى الضلالات التى ينسجونها حول مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار . وذلك لأنها تتضمن زعما خطيرا كان له أثر خطير فى التفكير البشرى - الدينى ، الفلسفى - حيال هذه المسألة ، وهو إن إبليس عندما أمر بالسجود وضع بين أمرين متعارضين ، إن أطاع الله فى أحدهما أصبح عاصيا له فى الآخر ، فآثر إلا يسجد لآدم إبقاء على توحيده لله وهو يعلم إن مصيره النار ، ومن ثم يبدو إبليس - حسب هذا الزعم - فى موقف البطل المأساوى أو شهيد التوحيد المظلوم» .

على أن المحنة التى يعبر عنها موقف الشيطان وتجسد مشكلة القضاء والقدر أو الجبر والاختيار ، هى محنة وجودية ، تعكسها كذلك مشكلة الحرية الإنسانية . إذ يبدو التعارض بين المشيئة الالهية المسبقة والتكاليف محدداً مسبقا وأبديا لملامح محنة الوجود العامل - المسئول - الحر عموما .

فالشيطان هنا كما يبدو - فى اللاوعى البشرى - مرآة ينعكس عليها أثر هذا الصراع الوجودى بين المشيئة الالهية والمشيئة البشرية ، والشيطان بهذا المعنى يمثل جانبا فعليا من اللاوعى البشرى، فلقى عليه

اللعنة ويتحمل عنا تبعات لا طاقة لنا بها ولانقوى على تحملها . خاصة ما كان ماسا منها بفكرة أساسية فى الدين ولأن محنة الشيطان هى ذاتها محنة الإنسان فقد : «سيطرت مسألة تعارض الأمرين الصادرين إلى الإنسان على الأدب التراجيدى الغربى خلال عصوره القديمة والوسطى . وتكمن المأساة الإنسانية ، فى هذا الأدب ، فى إن الإنسان - كالشيطان- هالك لامحاله . أيا ما أختار أحد الأمرين الصادرين إليه ، ومعنى ذلك إن هذا الأدب قد غلبت عليه النظرة الجبرية بالنسبة لما يتعرض له الإنسان من أحداث فى حياته ، فطبيعة الإنسان تتجه إلى أمور بينما يطلب منه «الإله» أمور أخرى منا فيه لها تماما»(١٤) .

ولأن المحنة واحدة ، يواجهها العقل فى صورة مشكلة مأساوية وجودية . فإنها تتجلى فى التفكير الفلسفى والأدبى والدينى لكل العصور ، حتى الفلسفة الإسلامية ذاتها قد تعرضت لهذه المشكلة . على نفس الأسس الإبليسية التى أعتمد عليها الشيطان فى طرح حججه ، نجد ذلك خاصة عند القائلين بالجبر . وحتى فى الأدب الحديث أو الفكر الحديث ما تزال مشكلة الحرية وتعارضها مع القدر والحتمية والضرورة هى أساس محنة الوجود الإنسانى ولنتأمل كيف أثرت المشكلة التى عبرت عن محنة وجود الشيطان وأجملتها شبهاته الشهيرة فى الفكر

الإسلامى خاصة ، والفكر الدينى للبشرية عامة ، ففيما يخص الفكر الإسلامى نقول: «أن علة نشوء الجهمية والقدرية والمعتزلة والأشاعرة - بعد ذلك - كان بسبب مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار، وبعد ظهور هذه الفرق، أضحت هذه المسألة هى حجر الزاوية فى فكر كل فرقة إسلامية وعقيدتها. فلم يسع الفقهاء والمحدثون والمتصوفة والفلاسفة ، إلا أن يدلى كل منهم بدلوه فى هذه المسألة ، كما حدث فى علم الكلام ، فظهر فى الفكر الإسلامى وجهات نظر متعددة ومختلفة ، حسب منهج وعقيدة كل فئة من هذه الفئات»(١٥) .

ومن هنا يرتبط البحث فى الوجود الإنسانى لدى تلك الفرق بالدمنولوجى «الشيطانيات» وخاصة الفلسفة الشيطانية أو بالأحرى نقدها . ودحض ما بها من شبهات إبلسية واعتراضات شيطانية على الله وتشكيك فى عدله وحكمته وغاية مشيئة وجوهره الالهى .

* * *

★ أولياء الله .. أولياء الشيطان

هل يمكن أن نتصور هذا العالم بغير وجود إبليس «رمز الشر» .. هل يمكن أن تكون ثمة حياة دونما شر ؟

يبدو أن هذا من الأمور المستحيلة ، مادام الصراع بين الحرية والحتمية من الأركان الأساسية للحياة . لأن هذا الصراع هو الذى جعل اكتشاف إمكانيات «الخير والشر» ممكنا ومثرياً لوجودنا عبر التجربة الكاشفة للصواب والخطأ .

لكن إذا اسوقفتنا كل تلك القرون التى عبرتها البشرية دون أن تتمكن من الارتقاء الخلقى بحسم مشكلة الحرية الإنسانية والحتمية - فى شكلها الدينى - لكان علينا أن نؤكد أنه لاسبيل إلى الرقى الروحى والخلقى إلا بحسم هذه المشكلة - على الأقل بتحييد الشيطان ، وذلك بالنظر إليه من زاوية أخرى جديدة . زاوية علمية نفسية تتجنب آثار المنهج الدينى فى تصوّره للشيطان .

أما ما يدعم هذا المطلب هنا فهو إستقراء أثر الشيطان فى التصوف الإسلامى خصوصا . إذ يرى أهل التصوف إن منهجهم الصوفى يقيهم

المعصية وكافة وسائل الشيطان حتى وإن استسلموالها ! وها هو «الدباغ» يقول : «إن الولى الكبير فيما يظهر للناس يعصى ، وهو ليس بعاص ، وإنما روحه حجبت ذاته ، فظهرت فى صورتها ، فإذا أخذت فى المعصية فليست بمعصية»(١٦) .

أما «الجنيد» وهو أحد كبار الصوفية فيقول إذ يسألونه : هل يزنى العارف ؟ قال : نعم .. وكان أمر الله مقدوراً ، وكأنه يدعى أنه رأى قضاء اللوح والقلم منفذ ، وكأنه زيف حديثا مؤداه «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»(١٧) .

أما «الجيلى» وهو أيضا أحد كبار الصوفية فيعلن فى صراحة قوله : «إن إبليس أعلم الخلق بآداب الحضرة (الالهية) ، ولا يعلن إبليس أو يطرد من الحضرة الالهية ، إلى أن يقول : فلا لعنة ، بل قرب مخص . وحنئذ يرجع إبليس إلى ما كان عليه عند الله من القرب الالهى . فقد قيل أن إبليس لما لعن هام وهاج لشدة الفرح حتى ملأ العالم بنفسه ، فقيل له أتفعل ذلك وقد طردت من الحضرة ؟ فقال : هى خلعة أفردنى الحبيب (الله) بها لا يلبسها ملك مقرب ولانبى مرسل»(١٨) .

ومن نفثات الشيطان وخواطره فى عقل ووجدان ولسان أهل التصوف ما قاله «البسطامى» عن نفسه حين قال : «وددت لو قامت القيامة حتى أنصب خيمتى على جهنم ، فسأله رجل : ولم ذاك يا أبا يزيد ؟ فقال : أنى أعلم أن جهنم إذا رأتنى تخمد والكون رحمة للخلق»(١٩) .

وينقل «السلمى» عن يوسف ابن الحسين الرازى قوله : «رأيت آفة الصوفية فى صحبة الغلمان ومعاشرة الاضداد وأرقاق النسوان» وهو نفسه كان مصاباً بهذا الداء إذ يقول : «عاهدت ربى أكبر من مائة مرة إلا أصحب حدثا ، وكان يفسخ عهدى هذا : حسن الخدود ، وقوام القدود ، وغنج العيون ، وما سألنى الله تعالى معهم عن معصية»(٢٠) .

وأخيرا ، وليس آخرا ، يذكر «الشعرانى» قصة شيخه «الخضرى» فى الطبقات فيقول : «أخبرنى الشيخ أبو الفضل السرسى أنه جاءهم (الخضرى) يوم الجمعة فسألوه الخطبة ، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ومجده .. ثم قال : «وأشهد أنه لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» فقال الناس : كفر ! فسل الخضرى سيفه ونزل فهرب الجميع من المسجد ، فجلس الخضرى على المنبر حتى صلاة العصر . فما تجرأ أحد أن يدخل الجامع ، ثم جاء بعض أهالى البلاد المجاورة ، فأخبر أهل

كل بلدة أنه خطب عندهم وصلى بهم ، فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا وهو جالس عندنا في البلدة .. ونراه على المنبر» !!

وهاهنا تنطق النصوص بذاتها فتعفى الكاتب عن التعليق أو الإشارة إلى أثر إبليس في التصوف .

* * *

- ديانة مصر القديمة .
- ديانات الهند .
- عقائد أهل بابل .
- عقائد اليونان .
- عقائد الفرس .
- الديانة العبرية .

★ الشيطان فى العقائد الكبرى

★ ديانة مصر القديمة

عرف عن قدماء المصريين إيمانهم بوجود الروح وخلودها . كما آمنوا بالبعث بعد الموت ، للروح لا للجسد ، وبالحساب والعقاب والثواب . في عالم الأموات ، أو الأرواح ، حيث الخلود الأبدى فى النعيم أو الجحيم . ومن الثابت أن هذا المعتقد المصرى القديم هو أصل كافة العقائد الدينية القائلة باستمرار الحياة بعد الموت فى النعيم أو الجحيم الأبدى بناء على المعتقد الأساس وهو «الخلود» .

ولا يقوم مثل هذا المعتقد إلا على فلسفة خلقية تميز بين الخير والشر، وشأن كل فلسفة أو معتقد دينى . لابد من ترميز ورموز تدل على المعتقد وتجذره فى اللاشعور الدينى ، كأن يكون للخير رمزه الخاص . الواحد أو المتعدد ، وأن يكون للشر - أيضا - رمزه الخاص . فمثل هذه الرموز تقوم بوظيفة هامة من حيث علة وجودها وهى أن تصبح محوراً للجذب أو النفور الخلقى حتى تتبلور العاطفة الخلقية الدينية ويتشكل الإنحياز الخلقى ليعبر عن الضمير الدينى فى موقف للإنسان - مع أو ضد - القوى العاملة فى الكون .

أما رمز الشر فى مصر القديمة فيمثله الإله «ست» إله الظلام والشر. وست هذا فى صراعه مع أخيه الخير «أوزير» كان قبل بدء هذا الصراع إلها خيرا ، ولم يتحول «ست» من الخير إلى الشر إلا بعد بدء الصراع مع أخيه على السلطة فى مصر القديمة . ولقد تمكن «ست» من الكيد لأخيه «أوزير» والقضاء عليه حتى ينفرد بالحكم فضرب بذلك مثلاً سيئاً للكيد والشر الذى يصل إلى حد القتل . وتحول بذلك إلي «إله للشر» .

ورغم هذا كان الشر قبل تحول «ست» عن الخير معلوما لدى القدماء فى مصر . وكان يرمز إليه بشكل الحية التى تمثل «ابيب» إله الليل والظلام ، العدو اللدود لإله النور أو الشمس «رع» .

فلما ظهر «ست» كإله للشر اكتسب كل الصفات النقيضه لإله الخير «أوزير» وأصبح «أوزير» : «ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الأرباب والناس وإله الآلهة وملك الملوك، وسيد العالم الذى لايفنى سلطانه .. أما «ست» فصفاته على النقيض من الخلود والسيادة على الأرباب والناس ، فلا سيادة له على غير الأرواح الخبيثة والأحياء الدنيا ، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ولكنه

يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتقضتين كناية عن الإسراع إلى الشر ، وذنبا شائلاً كناية عن الحران والأشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب» (٢١) .

ويلاحظ إن أصل الصراع بين الآلهة هو الصراع السياسى على السلطة فالحاكم هو الإله . ولم تكن صفة الالوهية تسقط عن الحاكم بموته، فالأصل السياسى للصراع الدينى بين الكهنة والآلهة على السواء تفصح عنه الأساطير المصرية القديمة . كما يلاحظ أيضا التقارب الشديد بين لفظ «ست» - إله الشر عند الفراعنة وبين لفظ «ستان» أو شيطان الذى نقل عن العقائد المصرية القديمة ضمن ما نقل من العقائد كالبعث والحساب أمام «محكمة أوزير» ووزن الأعمال لمعرفة الطيب من الشرير حتى يتقرر الجزاء العادل بالثواب أو العقاب . وهنا لا يمكن أن نقول فى معرض المقارنة بين الأديان إلا أن ديانة مصر القديمة هى الجذر الأول لكافة العقائد الدينية البشرية .

* * *

★ أديـــان الهـــند

قبل ظهور «الفيدية» فى الهند بأكثر من خمسة قرون .

كان العقل الدينى السائد فى الهند مختلفا تماما عن العقل الذى تشبع فيما بعد بأفكار كتب الفيدا التى ترجع بعض أسفارها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ومن الملاحظ أن كلمة «الفيدا» ذاتها تعنى المعرفة الكاملة الشاملة ، وتحوى الفيدا أناشيد تعبدية وسحرية وتتألف من أربعة مجموعات هى :

راجافيدا : وتحتوى الأوراد .

سافيدا : وتحتوى الأناشيد .

ياجافيدا : وتحتوى الطقوس والضحايا والقرابين .

آثارفيدا : وتحتوى التعاويذ السحرية .

وتأخذ الفيدية بالتعدد ، فعندها إن كبير الالهة هو إله السماء والمناخ ، وورودرا وأضى هما مساعداه فى تعريف شئون الكون والحياة . أما «جاما» فهو إله الموت ، ولهذه الآلهة - مثل آلهة الأغريق - صفات

وأشكال آدمية . وهناك أيضا الهة غير ممثلة مثل الالهة «براتيفى» الأرض أو الأم ، والإله «ديرس» السماء أو الأب ، والاله «فايو» أو الريح ، والإله «أباس» أى المياه .. وهكذا .

ومن كتب الفيدا ذاتها ، خاصة الراجافيدا والآثار فيد . ظهرت أول أسس التوحيد : «ونجد لأول مرة الإشارة إلى «وحدة الآله» باسماء مثل «براهمان» و«ڤاك» و«بوروشا» ومعناها الكلمة الفعالة . و«كارمان» ومعناها الفعل العام» (٢٢) .

★ **البرهمية :**

خرجت البرهمية عن تأويل الفيدية وشروحاتها الكثيرة على أيدى الكهنة الذين أحتكرور الكهنونية طوال القرون العشرة التى تلدت جمع أسفار الفيدا . وعلى أساس هذا الاحتكار انقسم المجتمع أو ازدادت حده انقسام الطبقات فيه إلى :

براهمان : وهم الكهنة .

كشترايا : وهم طبقة الحشد وسيميهم البيرونى (كشتر) .

فسيا : وهم طبقة إعمال والزراع وسيميهم البيرونى (بيش) .

سودار : وهم طبقة العبيد (الارقاء) وسيميهم البيرونى (شودر) .

أما كتب «البرهمية» المقدسة الأولى فهى :

البرهماناس : وهو أقدمها كتفسير مفصل للبرهمية الأولى .

الارانيكاس : يحوى التعليمات الخاصة بالنسك والاعتزال والكهنة .

الاوبانيشاد : يحوى الأفكار الفلسفية للديانة . وهو أحدثها إذ يرجع فى نشأته إلى القرن السادس ق. م.

ومن العقائد التى تضمها الأوبانيشاد عموما : «إن جميع الأعمال البشرية - بلا استثناء - هى شر لسببين : الأول هو أنها على الاطلاق . وعلى اختلاف أنواعها تلهى الفرد عن التفكير فى جوهر المطلق ، والسبب الثانى : إن هذه الأعمال تنتج «الكارمان» الذى أصبح الآن نوعا من المسئولية يوجب جمع أعمال كل شخص ويحتم على صاحبها العودة إلى الحياة (التناسخ) بواسطة التناسخ المشقى . أيا كان لون هذه الأعمال . لأن الخير من بينها كالشر يعيد الإنسان إلى الحياة وإن كان هناك فرق بين الحياتين فى السعادة والشقاء»(٢٣) .

وليس من مخرج للنجاه من النعيم أو الشقاء أو التجدس أو التناسخ سوى اعتزال الأعمال نهائيا ، وهو مطلب لايتحقق إلا بوسيلتين : الأولى هي المعرفة الخاصة بنجاة النفس ، والثانية هي إنحصار الإنسان في نفسه والتمركز فيها ، داخل مطلقه الازلي بالتأمل العميق الذى يؤدى إلى الإمتزاج (ببراهمان) .

ومع ذلك كانت عقيدة الأرواح الأولى المعروفة باسم «الراكشا» عقيدة شعبية منتشره حدا في الهند حتى قبل ظهور البرهمية . وكانت هذه الأرواح تعرف بأنها الأرواح الأولى الحارسة للبشر والأشياء . وتنسب لها أعمال الشياطين وتصورت النظرة إلى (الراكشا) فأصبحت بعد ذلك تظره إلى أرواح مسالمة من الجاث . وكانالهنود يتصورن تلك الأرواح بصور مشوهه أو بأكثر من قدم أو بعين واحدة .

ثم ظهرت البرهمية وثالوتها الشهير : «براهما - الخالق» ، «منشنو - الحافظ» ، «سيفا - الهادم» وسيفا هذا هو إله الشر في البرهمية ويساعده «زمانا» أعظم أرواح الشر وهو أمير أرواح «الراكشا» القديمة .

★ **الجينية :**

عقيدة تنسب إلى «مها فيرا» المولود سنة ٥٩٩ ق. م.

نشأ فى منزل ممتاز بين الرهبان وعندما بلغ العقد الثالث عن عمرةنزع ملابسة وحلق شعره وجاب البلاد حافيا فى زى النسّاك ولجأ إلى التقشف والجوع والتأمل النفسى . ثم خلع بقية ملابسه بالكامل بعد ذلك لإنه لم يعد يشعر بالبرد أو الحر أو الجوع أو السرور أو الألم .

والجينى يفعل مثل هذا اعتقادا منه أن هذه الوسيلة هى الوسيلة الوحيدة لمحاربته الشيطان . ففى المعتقد الجينى أنه : كان آدم وحواء فى الجنة يعيشان فيها عاريين تماما وبطهر كامل لايعرفان هماً ولاغماً. ولا يعرفان خيرا ولاشراً .. حتى إذا أراد عدوهما «الشيطان» أن يأكلا من الشجرة - شجرة العلم بالخير والشر - فأخرجا من الجنة ، على أثر ذلك ، وإذن كان إخراجهما من الجنة بسبب الشيطان فالعودة إلى تطبيق فكرة العرى هى محاربة للشيطان .

والجينى يقول لك : «إن الحياء الآن ضد الشيطان ، لكنه فى الماضى السحيق كان «العرى» هو الذى ضد الشيطان . لذلك فلا حياء

أبدا . وعدم الشعور بالحياء أفضل . إذ الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم . عندئذ يتدخل الشيطان فى حياة الإنسان . ولايمكن للشيطان التدخل إذا كانت حاله النفس نقية بالجوع والتقشف واعتزال النساء والصدق الاستقامة والتواضع»(٢٤) .

وتعتقد الجينية أيضا فى تناسخ الأرواح ، إذ عقيدة التناسخ تلك هى «المشكلة الجوهرية فى الهند . وهى مشكلة تأويل ومنهم عقيدة التناسخ العامة والثابتة ثبوتا غير قابل للمناقشة .. لهذا صدرت تلك المدرسة عن إيمان راسخ بأن كل شخص فى الحياة الأخرى يتوقف مصيره على أعماله فى الحياة الدنيا ، وأن هذه الأعمال التى تحيط الروح « بالكارمان »تلزمها بالعودة إلى الحياة مرة أخرى لتستأنف فيها أعمالا جديدة على نحو ما رأينا فى البرهمية»(٢٥) .

وأهم ما تقوم عليه فلسفة مقاومة الشيطان فى الجينية هو فكرة «العرى» ذاتها فى ارتباطها بفكرة نقاءالنفس ، فالحياء من العرى لايكون أبدا إلا فى وجود «الأثم» الذى يعطى الشيطان فرصة الوجود وأداء رسالته فالهدف هنا هو القضاء على الشعور بالاثم والحياء ولن يكون ذلك بغير العرى .

★ **البـوذيـة :**

ما من شعب من الشعوب القديمة إلا وقامت رؤيته للكون على فلسفة دينية .

ولا تستثنى الهند من ذلك ، بل لعل الهند أكثر اصقاع الأرض خصوبة فى خيالها الدينى والفلسفى فأننا نجد بعد «الفيدية» ديانات أخرى منها «البرهمية» ثم «الجينية» وتأتى «البوذية» بعد ذلك لتؤكد هذا الثراء الفكرى العظيم .

تنسب البوذية إلى «بوذا» المولود سنة ٥٦٣ ق . م والذى مات سنة ٤٨٣ ق . م وأسمه الأصلى «سيذهارتا» ولقب عائلته «غوتا» وهو مثل «كونفشويوس» أحد فلاسفة الحياة الذين لايؤمنون بوجود الإله .

وقد آمن «بوذا» مثل غيره من رهبان الهند بأن مصدر كافة آلام الحياة وشقاوتها هو الملذات والشهوات . وكان الطريق الوحيد لخلاص هو الزهد لامتلاك المعرفة والتخلص من الألم . وقد انتشرت البوذية فى العالم كله انتشارا ساحقا إذ بلغ عدد إتباعها ٤٧٠ مليونا .

ومن الثابت أن «بوذا» لم يتحدث فى الميتافيزيقا ، أو عن الإله - وإن قرر البعض أنه أنكر الألوهية بمفهومها الشائع قائلا : إنه ليس ثمة إله كالذى يصورونه ، وإنما هناك روح عام فتغلغل فى كل شيء»(٢٦) .

وكان «بوذا» يرفض النظام الكهنوتى ، لذا فقد رفض أن يؤلف الكتب الذى تضم أفكاره ومذهبه وفلسفته حتى لايتسبب تفسير وتأويل تلك الكتب إلى انقسام الناس ونشوء الكهنوت البوذى . وهكذا ظلت تعاليم البوذية تنتقل شفاهية حتى القرن الأول ق . م .

ثم «انقسم البوذيون - بعد ذلك - إلى قسمين : سكان الشمال وسكان الجنوب . ثم جمع كل منهما حكم (بوذا) وتعاليمه وعظاته ومناهج حياته العملية حسبما رآها وضم إليها قصصا عجيبة وأساطير شيقه عن التجسد والتناسخ»(٢٧) .

وبعد ظهور «بوذا» أصبح الوحى من النفس بعد أن كانت السماء هى مهبط الوحى على مختاريها من البراهمة واستطاع «بوذا» كذلك أن يجعل من مهمة البوذية مهمة أكثر اتساعا من مهمة الخلاص الفردى . فمهمة البوذية هى انقاذ العالم من الشقاء وإلغاء نظام الطبقات .

وفى العقيدة البوذية أننا مرغمون أبدا على الحياة والعودة إليها عن طريق التناسخ كل حسب أعماله ووفقا لقانون (الكارمان) .. وهدف البوذية - بالطبع - هو اكتشاف الم الحياة وأصل هذا الالم حتى نتمكن بعد ذلك من السيطرة على الألم ومحوه . ولقد حدد (بوذا) الوسائل التى تؤدى إلى اكتشاف الالم ومحوه . وهى :

عدم قتل أى كائن حى .

عدم السرقة - عدم الكذب .

التأمل - الحكمة .

عدم شرب الخمر .

عدم اشتهاء النساء لا سيما نساء الآخرين .

فتلك فضائل لو تمسك بها البوذى لتوصل إلى طريق النجاة ومحو الألم ، ولكن نفس تلك الفضائل لا توصل إليها إلا بالزهد والثقافة والتأمل .

وإذا كانت البوذية تنكر المطلق فهى لا تنكر النفس (الروح) : «وهى قد تنكر «النفس المطلق» كما تنكر ما وراء الطبيعة ، لكنها لا

تنكر وجود النفس لأن وجودها أساس عقيدة التناسخ الذى يعتبر الحياة والموت - معا - لونين من ألوان الوجود . والنفس البوذية ليست هى ذاتها فى حالات تناسخها المختلفة»(٢٨) فالخلاص فى البوذية هو الزهد وترك الشهوات لإماته الجسد (الزقانا) .

وبعد أن نشأت المدارس البوذية الكثيرة ودارت بينها رحى الحرب والتناحر عادت البوذية إلى التقهقر من جديد أمام الدين الفيدى والبرهمية فى شكل متطور . وتمكن البراهمة من جمع كتبهم المقدسة فقسموها إلى قسمين كبيرين هما :

(أ) «المهابهاراتا» . (ب) «الرامايانا» .

وبقى الثالوث الهندى : «براهمان : الرئيس الأعلى» و «فشو : اله الحياة» و«سيفا : إله الخراب والدمار والشر والإبادة» وهو الذى يمثل دور إبليس فى العقائد الهندية .

★ ***السامكيهية :***

أنبثقت السامكيهية عن البرهمانية خاصة ، فهى أحد المذاهب النابعة من الفيدية .

ومؤسس السامكيهية هو «كابيلا» الذى عاش فى القرن السادس عشر ، ويدل لفظ السامكيهية - على التعدد اللامتناه للنفوس . ويؤمن «كابيلا» بعدم بوجود إله قادر منفرد بالتصرف فى الكون . وإنما «هناك روحا عاما أو عالما من الأرواح غير محدود ، ولا متناه ، متشابه الوحدات ، وأن هذه الوحدات بتكاتفها مع المادة هى الى تحدث فى الكون هذه الآثار وتلك التغيرات . والعالم فى السامكيهية منقسم إلى قسمين الأول : هو النفس والثانى : هو المادة .

وتؤمن السامكيهية بوجود الشر والأرواح الشريرة . ولاتجد الخلاص من شرور العالم إلا فى الزهد والعمل الصالح والتأمل والجهاد لإمتلاك المعرفة .

وتؤمن السامكيهية كذلك بالخلود وعدم الفقاء ، وهى لا يعتبر الموت سوى مجرد تغير طارئ لمأوى النفس إذهى لا تتعرض بالموت إلى أى شىء إلا انتقالها من مأوى إلى مأوى بالتقمص أو التناسخ(٢٩) .

يقول البيرونى :

«أما من استحق الاعتلاء والثواب فأنه يصير كأحد الملائكة مخالطا للمجامع الروحانية ، غير محجوب عن التصرف فى السموات والكون مع

أهلها ، أو كأحد أجناس الروحانتين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فإنه يصير حيوانا أو نباتا أو يتردد إلى أن يستحق ثوابا فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص»(٣٠) .

* * *

★ عقائد أهل بابل

الحضارة البابلية من أقدم حضارات الشرق القديم وأسبقها ، باستثناء الحضارة المصرية القديمة ، وهى حضارة قائمة على تصور العالم القديم - فى صورته الاسطورية - غاصاً بالالهة والشياطين التى تسيطر على مقدرات الكون والشر عبر الصراع الدائر بنيها والذى يعتبر هو نفسه السبب فى نشأة العالم والكون .

- الديانة الأولى :

أشهر آلهة بابل فى ديانتها الأولى ، الإله «آنو» - إله مدينة أوروك، والإله «مردوخ» إله مدينة بابل ، والإله «بيل» إله مدينة نيور . والإله «سين» إله مدينة أورو . وتنتمى أساطير الخلق فى الديانة البابلية الأولى إلى أساطير النشأة المائية على النحو التالى :

«فيما وراء الكون كان الخلاء المطلق ، وأول ماظهر فى هذا الخلاء عنصران : أولهما «أبسو» أو الماء الحلو، أو الذكر الأول فى الكائنات ، وثانيهما «تيامات» أو الماء المالح ، أو أولى إناث الكائنات ، ثم

اجتمع هذان العنصران بقصد الإنجاب فنشأ من اجتماعهما كبار الآلهة ، وكانت نشأتهما على النحو التالى :

١ - «آنو» : الرئيس الأعلى للآلهة ، سيد الظلام وإله الكنوز المخفية . وسيمتزج فيما بعد بمردوخ إله بابل ، حين تصبح تلك المدنية أقوى من الكلدان على نفس النحو الذى كان يحدث فى مصر القديمة .

٢ - «انليل» : وهو خالق العالم أو سيد السماء والأرض .

٣ - «آيا» : وهو إله العلوم والمعارف ، المرشد العقلى . أو السيد العامل العالم وقد جعلوه مرادفا للمحيط وبعد هذا الثالوث ، الأول ، ظهر الثالوث الثانى :

١ - سين : القمر .

٢ - شماس : الشمس وهو أقل رتبة من الإله الأول (القمر) .

٣ - إداد : المناخ المسئول عن الظواهر الجوية كالرعد والبرق والمطر والعواصف وغير ذلك وإلى جانب هذين الثالوثين نشأ خمسة آلهة أخرى هم : يننيب وماردوك ونيرجال واشتار ونايو، وهؤلاء الخمسة هم حماة الكواكب وأشهرهم جميعا حامية الزهرة «عشتروت» إلهة الغرام

والرغبات الجنسية والتناسل والنصر ويلقبونها بأم الحياة تارة وبالهة المجون تارة أخرى .

- **أسطورة الخلق :**

إذا كانت العناصر الأولى للكون : أبسو وتيامات هما أصل جميع الآلهة ، وهما يمثلان عنصرا الماء الحلو والماء المالح ، وأن نشأة الكون قد حدثت من اجتماعهما . نشأ أولا «أنتار» وهى السماء ، ثم «كشيار» وهى الأرض . ومن اجتماع هذين الأخيرين نشأ «آنو» وجميع الآلهة الأخرى ، لكن من سرعان مادب الصراع بين الآلهة وطغى الأحفاد والأبناء على والديهما الأولين أبسو وتيامات ، وأغتصبوا مكانتهما فندم أبسو وتيامات على إنسالهما هذا العالم وصمما على إبادته فأرسلا الوحوش المروعة فى إثر الآلهة والعالم ليبيدوهما ، لكن «آيا» إله العلم سلط بعض تعاويذه السحرية على أعداء الالهة فسلبهم كل مقدرة على الأذى . وجعلهم هم ومحرضهم الأول «أبسو» سلبيين لاحراك بهم ، فحاولت تيامات الانتقام من جديد فتصدى لها الإله «ماردوخ» حتى صرعها وقطعها قطعتين جعل من الأولى غطاء للسماء ومن الثانية غطاء للأرض حتي يمنع الماء الأعلى أن ينهمر ، والماء الأسفل أن ينحبس ، ثم

أقر - بعد ذلك . النظام والسلام فى السماء وعلى الأرض ، فحدد لكل من الكواكب فلكه الذى لا يتعداه والسماء والأرض والفصول ، ثم خلق الخلق بعد ذلك فبدأ بالحيوانات ثم ثنى بالاناسى ، وقد خلقهم من دم رئيس الشياطين الذى قتله هذا الإله قبل بدئه فى خلق الإنسان وعلى أثر ذلك بنى القرى والمدن واختار لنفسه من بينها مدينة بابل« ٣١ » .

والزعيم الأكبر للجن والشياطين عند البابليين هو «لابارتو» الذى يتبعه سبعة من عظماء الجان والشياطين يتولون أموراً أخرى متنوعة ومختلفة وفق اختصاص كل منهم .

وكان أهل بابل قديما يعتقدون فى وجود جنس آخر بين البشر والشياطين والجان وهى الجنس الذى يكون نصفه الأول بشرياً ونصفه الثانى شيطانيا وهو وليد الأغوال الماصة للدماء ، وهدف وجود هذا الجنس خصوصا والشياطين والجن عموما هو تدمير الإنسان والقضاء عليه أو إصابته بعدد من الأمراض كانوا يعالجونها - فى بابل - بالكثير من التعاويذ والتمائم والسحر والكهانة والعمل على محاربة الشياطين وإخراجها من جسد الإنسان .

ولأن أرض بابل القديمة هى الأرض التى تنتمى إليها الجذور الأولى للديانات الكتابية من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابى إلى عهد السبى البابلى واختلاط بنى اسرائيل بالبابليين والميديين . وقبل ذلك عبادة «مترا» والعقيدة المانوية وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة فى دولة الرومان ، وقبل ذلك - أيضا - عرفت بابل عقائد المجوس الرزاد شتية كما اشتغل علماء بابل بالفلك وربطوا بين النجوم وحركاتها وبين أقدار البشر وحوادث العالم . وتعتبر ديانتهم القائمة على الثنوية تطورا بالنبته لعقيدتهم فى مردوخ ، كما تعتبر عبادة الكواكب «الأرباب» وعبادة الثانوية من جهة أخرى هى أهم العقائد السائدة فى بابل . وقد كان الروح الطيب والروح الخبيث فى «الثنوية» هما (أو رمزد) - و(أهريمان» أو إله النور وإله الظلام . وهما أعظم آلهة بابل بعد «ماردوخ» ولكل إله منهما خلائفه وأعوانه وجنوده «٣٢» .

ويدل تطور العقائد البابلية القديمة على أن تصور الوجود والنشأة الكونية الأولى كان محكوما لدى أهل بابل بتصور خاص عن الآلهة وأصل وجودها من جهة والصراع الدائر بينها من جهة أخرى . إذ لولا هذا الصراع الذى صورته الأساطير البابلية لما نشأ الكون من العناصر

المتصارعة المتناقضة وهو نفسه الصراع الذى يشكل تصور الشيطان فى العقائد البابلية القديمة من «آنو» إلى «أبسو» ومن «أهورا فردا» إلى «أيل» وخصمه «بعل» - أصل العبادة الشيطانية فى الشرق وصاحب أول معبد لعبادة الشيطان فى بابل .

* * *

★ عقائد اليونان

كانت الآلهة فى اليونان ، مثل سائر آلهة الأمم القديمة الأخرى .

أى أن لهاما للبشر من صفات ، وإن حازت من الكمال ما يرفعها فوق البشرية ، ولكنها رغم هذا الكمال تتصارع فيما بينها . ويحكم صراعها مصالح تعبر عن أهدافها التى تخوض من أجلها الصراعات وتجند فى سبيلها القوى الكونية والبشرية معا .

وعلى هذا النحو جسدت الميثولوجيا اليونانية صراعات الآلهة وصفاتها البشرية ، وظلت أساطير اليونان هي منبع الفكر الدينى الذى يحكم ويشكل الوجدان الدينى اليونانى حتى ظهرت الفلسفة اليونانية التى أثراها الكثير من فلاسفة اليونان الذين جاءوا إلى مصر وتعلموا فيها ومنهم طاليس وفيثاغورس وديموقريس وانكسيماندر وأفلاطون وغيرهم ممن أقاموا أسس التفكير الفلسفى فى اليونان على عمد المنطق من جهة وعلى أطلال الفكر الميثولوجى من جهة أخرى .

ولكن قبل نشأة الفلسفة ، كان اليونان يؤلهون الطبيعة وظواهرها من جهة ، ويؤلهون الفضائل الخلقية كالصدق والأمانة .. الخ من جهة أخرى،

ويجعلون للحكمة والموسيقى والطب والحرب والزراعة والأرض والثروة والجمال ويغر ذلك آلهة يختص كل منها بوظيفة من تلك الوظائف . ومن هنا نعلم الكم الهائل من الآلهة التى عرفتها اليونان والتى كان على رأسها جميعا «زيوس» رب الأرباب .

لكن على النقيض من سائر العقائد ، نجد «زيوس» هذا يقوم بوظيفة أقرب إلى وظيفة الشيطان فى الكون . بينما يقوم إله آخر هو «بروثيوس» المتمرد عليزيوس والذى ينصب عليه غضب رب الأرباب بتعليم الإنسان سر النار ويلهمه الحكمة ويعلمه الطريق إلى الخلود ولهذا غضب عليه «زيوس» واضطرمت ثورته بما يكشف غيرته من هذا الاله المنحاز للإنسان على الرغم من إرادة «زيوس» رب الأرباب .

ولهذا صورت الميثولوجيا اليونانية «زيوس» فى صورة الإله الباطش الذى تحكمه شهواته وأطماعه وعدوانيته التى تصب جام غضبها بغير تبصر أورويه أو حكمة على البشر والآلهة معا . بينما صورت «بروميثوس» المتمرد على زيوس فى صورة الإله المظلوم الذى تحمل عقاب «زيوس» من أجل الإنسان . فهو الصورة الأولى للمخلص للبشرة وهاديها ومعلمها وفاديها وقائدها .

ولكن كما هو الشأن فى كافة العقائد القديمة فأننا نرى أن الإنسان هو المستفيد الدائم من الصراع بين الآلهة أن هذه الاستفادة تأتى على صور شتى منها خلق الكون ذاته فى أساطير بابل ، أو تعلم الإنسان سر النار فى أساطير اليونان ، وربما كان ذلك يتماشى مع اعتقاد الإنسان فى عصور الحضارات القديمة بأنه هو نفسه مركز هذا الكون أو غايته . وذلك قبل أن يكتشف العلم الحديث ضآلة حجم كوكبنا فى الكون المنظور «المرصود» فضلا عن الأكوان غير المعلومة وغير المرصودة . وهى الحقيقة التى تنفى أن يكون الكون قد نشأ من أجل الإنسان .

* * *

★ عقائد الفرس

قامت الديانة الأولى للفرس على عبادة العناصر الأربعة فى الطبيعة.

النار ممثلة فى كوكبيها الشمس والقمر ، والهواء والماء والتراب . وهى عبادة قائمة على القرابين البشرية التى أستمر التقرب بها إلى الآلهة إلى أن ظهر نظام الكهنة فاستعيض عنها بالقرابين الحيوانية . والكتاب المقدس للفرس هو «الزندافستا » الذى نسخ فى القرن السادس بعد الميلاد وإن كانت أقدم أجزاؤه ترجع فى تاريخها إلى القر السابع قبل الميلاد .

وإلى جانب العناصر الأولى كانت لكافة ظواهر الطبيعة آلهة تختص بها . وكانت أشهر الآلهة «مترا » ثم «أناهيتا » ولكن أعظم الآلهة هو الإله الرئيسى «أهورا مازدا » إله الخير الأعلى ، غير المرئ ، والذى لاخصم له سوى إله الشر «اهريمان» .

الزراد شتية :

نسبة إلى زراد شت الذى عاش فى نهاية القرن الثامن قبل المسيح والذى كان وجوده ثورة على الدين القديم وخرافاته فراح يحطمها خرافة

بعد أخرى . لكنه أبقى على الإله «أهورامزدا» كإله للخير وأبقى على خصمه الشرير «اهريمان» كإله للشر . وقد حيكت حول مولد زرادشت وحياته الكثير من الأساطير بعد موته ، لكن ظلت ثنائية «أهورامزدا» - «أهريمان» قائمة وتفرعت عنها عقائد الفرس فى وجود الشياطين والجان والملائكة .

وتتحدث «الزندافستا» عن عدد كبير من الملائكة ، وهم جنود وأتباع ووزراء أهورمزدا ، وأعظمهم سته لكل منهم اختصاصه ويرأسهم الإله نفسه «أهورا» ولكل واحد من أولئك الملائكة جنوده وأعوانه من الملائكة والجن والأرواح الطيبة .

وبالمثل كان لإله الشر «أهريمان» - الشيطان - مثل ما لأهورامزدا من الجند والأعوان والوزراء . ولكل قائد من قواد «أهريمان» مكانه ووظيفة خاصة يقوم بها سواء أتصلت بالظواهر الطبيعية أو برذائل السلوك . ولكل واحد من أولئك القواد والوزراء عدد لاحصر له من الشياطين يعملون على تنفيذ مخطط الشر لإفساد العالم والحياة البشرية بنشر الفساد والرذيلة .

المانوية :

نسبة إلى نبيها «مانى» أو «مانيس» المولود فى بابل سنة ٢١٥ والذى قتله أحد ملوك الفرس سنة ٢٧٥ ميلادية . وهو مثله زرادشت يرى أن أصل الكون مبدأين أو الهين هما : الخير والشر ، لكنه كان متشائما إلى الحد الذى ينكر فيه امكان القضاء على الشر فى العالم بوسيلة سوى القضاء على العالم نفسه بمختلف الوسائل الممكنة ومنها منع الزواج . لأن استمرار العالم يعنى استمرار الشر ، ويرى مانى متأثرا بزرادشت إن الإنسان قد خلق بهدف الكفاح ضد «اهريمان» - الشر، ولمساندة الخير.

«أهورامازدا» لكن مع الوقت انتصر الشر ممثلاً فى «أهريمان» وأعوانه مما يقطع كافة السبل أمام الإيمان بإمكانية عودة التصالح بين مبدأىّ الوجود ، الخير والشر ، فهما على تناقض وصراع ولاسبيل أبدا إلى التوفيق بينهما . وليس أمام الإنسان من سبيل إلا التخلص من العالم الذى يحكمه الشر .

المزدكية :

نسبة إلى «مزدك» الذى عاش فى نهاية القرن الخامس الميلادى .

تأثر مزوك بآراء درادشت وماني ، لكنه خالف الأخير في الكثير من آراءه الاجتماعية - ودعا إلى الشيوعية باعتبارها الحل الأمثل الوحيد للتغلب على قوة الشر في العالم ، وقد رأى مزدك أن سبب الشر في هذا العالم هو الحقد والحسد . وأن مشاعر الحقد والبغض أصلها «الملكية الخاصة» التي تركز الثروة والنساء في أيدي طبقة دون سائر الطبقات مما يفجر مشاعر البغض والحسد والكراهية وهي العوامل المثيرة للشر في العالم . ومن ثم قامت دعوة مزدك إلى الشيوعية على أساس إلغاء الملكية الخاصة وتعميم الملكية العامة للثروات والنساء وكسر الاحتكار عموما والامتلاك خصوصا .

وإذا .. كان المبدأ الغالب في عقائد الفرس هو «الثنوية» التي تقتسم العالم بين الهين ، النور والظلمة ، أو الخير والشر . «أهورامزدا» أو «أهريمان» . وإن لكل إله منهما جنده وملائكته وأتباعه الذين يساعدونه وينصرونه في صراعه مع الآخر .

* * *

★ الديانة العبرية

الديانة العبرية هى أول الديانات الكتابية ، وكونها كذلك يعنى أنها - كما قال العقاد : حملت عبء التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد التوحيد من قبل ظهورها إلى ما قبل المسيحية بنحو مائتى سنة . وهى لذلك لم تستقم على عقيدة الإله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية إلا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد «٣٢» وهذا ما يفسر لنا النكوص المستمر للعبريون الأوائل إلى شعائر الأوثان والأجنام وعبادة بعل وتموز وعشتروت والآلهة البابلية الشهيرة عموما ، ولهذا لسبب أيضا لم يجد العبريون الأوائل سبباً يدعو إلى عزل الشيطان وفصله - عن قوة كونية أخرى - وإسناد الشرور إليه هو بالذات . لأنهم كانوا يتوقعون من الإله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد ينسب عندهم تارة إلى الشيطان وتارة إلى الإله ويقرر العقاد فى كتابه عدد «إبليس» أنه : لم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب - العبرية - قبل عصر المنفى إلى أرض بابل سنة (٥٨٦) ق . م . وأن قرابين الكفارة التى كان يقدمها العبريون كانت تقسم على السواء بين الإله وبين عزازيل رب القفار أو

الجن الذى يهيمن على الصحراء ، وإن إيمانهم بوجود الأرباب الأخرى التى يعبدها الأمم الأخرى بديلا عن (يهوه) - إله اليهود - صورة من صور الشياطين ، لأنها كانت تعمل عمل الشياطين كلما جرفت الشعب عن عبادة يهوه .

ومن الواضح إن عمل الشيطان فى التوراة كان محصورا فى إيغار صدر الرب «يهوه» على عبده أيوب كما هو واضح فى الأصحاح الأول من سفر أيوب . ثم تتوالى المحنة التى هى مجرد الرمز العام لمحنة الإنسان والشيطان والإله معا .

على أن أغب صفات الشيطان فى اليهودية كان الحكماء والربانيون قد نقلوها عن أوصاف «اهريمان» إله الظلام فى الديانات البابلية والمجوتيه ، وما أن تطورت تلك الصفات حتى جعلت من إبليس ندا أو مناجزاً وعدواً لله وللإنسان معا .

* * *

- الشيطان والشعر .
- الشيطان والأدب .
- الشيطان والموسيقى والغناء .
- الشيطان والفن التشكيلى .

★ الشيطان والفنون

★ الشيطان والشعر

كان الشعر عند العرب خلقا ينسب إلى القوى الكونية الغامضة أو الخفية .

وخاصة ، الجن والشياطين . ولهذا أتهم عرب الجاهلية الرسول بقول الشعر ، وقالوا إن الشعر قرآن الشيطان وإن قرآن الرسول من وحى الشياطين !

لكن لم يكن الشعر كله عند العرب من وحى الشياطين ، فبعض الشعر ينسب كذلك للأرواح العليا والملائكة وعلى رأسها جبريل الذى نسبت إليه بعض أبيات (٧٠) فى قصيدة لحسان «٣٤» ولكن الأغلب أن يكون الشعر وحيا من الشيطان ، أو منحة يمنحها الشيطان لكل شاعر ، وإن كان بمقدور الشاعر أن يقبل أو يرفض تلك المنحة . وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر الحس ابن هانئ «أبى نواس» الذى تمرد على الشيطان وسخر منه فى غير موضح من شعرة :

عجبت من إبليس فى تيهه   وخبث ما أظهر من نيته

تـاه عـلـى أدم فـــى سـجـــدةٍ   وصـار قـوادا لـذريـتـه(٣٥)

وهو على هذا السخر والتمرد يطلب من إبليس أن يكون خادماً له فى

ويتبع هذه السخرية تطوراً آخر يدل على التمرد والرفضلأن يظل الشاعر مجرد جنديا من جنود إبليس ، ويدل ذلك قوله :

وكنت فتى من جند إبليس فارتقت   بى الحال حتى صار إبليس من جندى

هواه ويهدده لينفذ رغباته وإلا أمتنع عن الشعر والسكر والغناء وعكف على درس القرآن :

إن أنت لم تلـق المـودة فـى   صدر حبـى وأنت مقتـــدرُ

لا قلت شعرا ولا سمعت غنـاً   ولا جرى فى قفاصلى السكرُ

لا أزال القـــرآن أدرســــه   أروح فـى درسة وأبتكـــر

والزم الصــوم والصـــلاة ولا   أزال دهـــرى بالخير أأتمـــر(٣٦)

بل إن الشعر نفسه قد أرتبط عند العرب بالكذب ، كما أرتبط الشيطان كذلك بالكذب ، ويروى ابن رشيق القيروانى عن النابغة قوله : «أشعر الناس من أستجيد كذبه»(٣٧) كما يذكر ابن رشيق أيضا أنهم قالوا : «إن قواعد الشعر أربع هى : الرغبة والرهبة والطرب والغضب .

مع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب» (٣٨) .

وهذه القواعد تربط الشعر بالشيطان بروابط واضحة كلها روابط دنيوية تقوم على مطامع أو مخاوف يحركها الشيطان فى نفس الشاعر . وقد كان العرب قديما يباهون بعضهم البعض بقوة شياطينهم وبالتالى بقوة قصائدهم ، لذا . أعتبر العرب - بعد الإسلام - الشعر والغناء قرآن الشيطان ، وعندما عرض للرسول شاعر ينشد قال الرسول لأصحابه : «أمسيكو الشيطان ، لإن يمتلئ جوف رجل قيحاً خيرله من أن يمتلئ شعراً»(٣٩) .

وكما كان الشيطان شخصية ذات أثر بالغ فى الشعر العربى ، كذلك كان الحال بالنسبة للأدب الغربى عموما . ولقد جسد شعراء الغرب شخصية الشيطان فكان من أشهرهم الشاعر الإنجليزى «كريستوفر مارلو» المولود عام ١٥٦٤ والذى كتب قصة الساحر «فوستوس» مع الشيطان . وتدور القصة عن العقد الذى أبرمه فوستوس مع

«مفستوفوليس» - الشيطان - وباع روحه وجسده بمقتضاه للشيطان مقابل متع الحياة .

ويأتى بعد «كريستوفرمارلو» صاحب رائعة «الفردوس المفقود» الشاعر «جون ميلتون» الذى ولد عام ١٦٠٨ وتوفى عام ١٦٧٤ وكان الشيطان شخصية محورية فى فردوسة المفقود .

وبعد ميلتون يأتى الشاعر الألمانى «جيته» الذى أصل شيطانه مساحة عظيمة فى رائعته «فاوست» ثم يأتى «وليم بليك» بعد جيته وهو أغرب من كتب عن الشيطان ، وبعده الشاعر الإيطالى الشهيد «كرودتشى» الحاصل على جائزة نوبل ، صاحب نشيد الشيطان وهو النشيد الذى يضرب عرض الحائط بصراع إبليس مع ميكائيل ويمجد الشيطان باعتباره رافع علم الثورة(٤٠) .

وهناك كتاب وأدباء وشعراء غربيون ، عدا هؤلاء ، كتبوا عن الشيطان ومنهم : الأديب الأشهر فيكتورهيمو ، والشاعر الفرنسى بودلير، هذا . عدا ما كتب عن الشيطان فى الغرب فى صورة هزلية فى كتابات الفرنسى رابليه والإنجليزى بن جنسون وغيرهم .

على أننا قد نجد العديد من الصور الفنية التى تجلى الشيطان بها فى أدبيات الأمم على اختلافها ، حتى فى الحضارات القديمة وآدابها وأساطيرها ، إذ لا يقتصر ظهور الشيطان على الأدبين العربى والغربى وحدهما . بل هو ظهور عام فى سائر أدبيات الأمم القديمة والحديثة والمعاصرة .

ولعل سر ظهور الشيطان بهذه الصورة الملحة فى أدبيات البشر على أختلاف أجناسهم ، يكمن فى اللاشعور البشرى نفسه ، وليس أفضل من الفنون والآداب للكشف عن مكنون اللاشعور فى أمة من الأمم ، وهكذا يمكن بالتحليل النفسى للخطاب الأدبى أن نكشف عن المكانة العظمى التى يحتلها «الشيطان» فى اللاشعور البشرى . والتى يتم التعبير عنها فى مختلف مجالات الفنون والآداب .

* * *

★ الشيطان والأدب

يصعب ألا نجد الشيطان فى أدب أمة من الأمم جميعا .

لقد تناول الأدب العربى الشيطان بأكثر من صورة ، لكن أشهر حديث عن الشيطان فى أدبنا العربى نجده فى «رسالة الغفران» - (المعرى) ، وبالطبع فإن الشيطان قد وجد فى أدبنا العربى قبل «رسالة الغفران» وفى الشعر القديم وفى القصص المسمى بالف ليلة . ثم : «لم يطرأ على الأدب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الأمم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الأمم ومن موضوعاته : الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناتها المشبهة بتماثيل الأحياء»(٤١) .

ومن تلك المحاولات الحديثة قصيدة «ترجمة شيطان» - الجزء الثالث من ديوان العقاد (١٩١٢) ثم «حديث إبليس» النثرى لعبد الرحمن شكرى ، ثم ديوان «عبقر» للشاعر السورى شفيق معلوف (١٩٣٦) ثم قصة «الشهيد» لتوفيق الحكيم (١٩٥٣) .

وقد تنوعت صور الشيطان فى الكتابات العربية قديمة وحديثة ، إذ هناك من يرى إن أحاديث الجن والشياطين إن هى إلا خرافات ، ومن هؤلاء «الجاحظ» - فى كتابه «الحيوان : ج١ ص ١٨٠» وهو يسخر مزاعم العرب وعقائدهم فى أن للشعرا وألنساك من الشياطين ما يلقى إليهم الشعر أو يفتنهم . ويقول الجاحظ (ج٦) :

إن «ضعفة النساك وأغبياء العباد يزعمون أن لهم شيطانا قد وكل بهم يقال له «المذهب» يسرج لهم النيران ويضىء لهم الظلمة كما يسهر لفتنتهم ويريهم العجب إذ ظنوا إن ذلك من قبل الله» .

أما الذين يرون فى الفنون والآداب على اختلافها وحيا من عمل الشيطان فهم يعتقدون : إن الشيطان يعمل منذ البدء على إسقاط البشر فى الغواية . وهو لا يترك ثغره للدخول إلى قلوب البشر لإفسادهم إلا ودخل منها ، ولما كان المدخل القوى إلى قلب الإنسان هو التأثير على عواطفه من خلال الأعمال الفنية الناجحة مثل الشعر والأدب والموسيقى والرقص والنحت وغير ذلك من الفنون مثل الرسم والتصوير والتمثيل وغيرها . فالشيطان يلهم الفنون إلى أصحابها حتى تصبح من

أهم مداخله إلى نفوس الناس وغوايتهم ، أما كيف يتم هذا الإلهام .
فانصار هذا الرأى يعتقدون أنه يحدث عن طريق القرين ، وهذا خلط
واضح بين القرين والشيطان ؟

* * *

★ الشيطان والموسيقى والغناء

يعتقد البعض إن ثمة صلة وثيقة بين الشيطان وبين فنون الموسيقى والغناء .

بل أن أنصار هذا الرأى يذهبون إلى أن الشيطان - منذ قديم الزمان - يهدأ عند سماعه لألحان الحواة والسحرة ، بل أنه يقلل - تبعا لذلك - من تعذيبه لمن يعذبهم من البشر . وقد رأى البعض إن الموسيقى تستخدم كذلك فى جلسات استحضار الارواح وإن داود الحكيم كان يطرد بها الأرواح الشريرة التى تعذب الملك شاول (اصم ١٦ : ١٤-٢٣) ويرى «ابن تيميه» إن : «من أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهى . وهو سماع المشركين ، قال تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت الإمكاء وتصدية» وقال بن عباس وابن عمرو وغيرهما : التصدية: التصفيق باليد والمكاء : الصفير ، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة .

ثم قال عن مستمع الغناء : «وحالة خوارقه تنقص عند استماع القرآن ، وتقوى عند مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك وهو يبعض سماع القرآن

وينفر منه ويتكلفه .. ليس فيه محبه ولا ذوق ولا لذة عند وجده ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد .. فهذه أحوال شيطانية »(٤٢).

ويذكر «الطبرى» فى تاريخ الرسل أصل الغناء والموسيقى فيقول : «إن بطنين من ولد آدم ، كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل،وكان رجال الجبل صباحا ، وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة . وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل فى صورة غلام، فأجر نفسه منه . وكان يخدمه . واتخذ إبليس شيئا مثل الذى يزمر فيه الرعاة ، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عيدا يجتمعون إليه فى السنة، فتتبرج النساء للرجال وتنزل لهم ، وإن رجلا من الجبل هجم عليهم وهم فى عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فظهرت الفاحشة فيهن»(٤٣) .

وإذن فالعلاقة بين الشيطان وبين الغناء والموسيقى هى نفس العلاقة مع الشعر ، فقد كانت علاقة المغنى بالشيطان هى نفس علاقة الشاعر به فى العصر الجاهلى والأموى والعباسى . فالمغنى يسمع ماغناه الشيطان

ولحنه فينقله ، ولذلك أشتهر معبد والغريض وابن سريج بصلتهم بالجن وأخذهم الغناء عنهم .

ويذكر أن «إبراهيم الموصلى» نفسه قد تلقى بعض الحانه عن إبليس ذاته . وكذلك ابنه «اسحق الموصلى» ومثلهما «مخارق بن يحى» وكذلك «زرياب» المغنى الشهير . وقد ذكر «العسكرى» فى «الأوائل» إن إبليس هو أول من غنى . لذا اعتبر العرب الغناء عملاً من أعمال الشيطان ! بل هو عند ابن يتميه وابن القيم «مزامير الشيطان» و«قرآن الشيطان» !! وما يزال الغناء والموسيقى أيضا - إلى الآن - من الأعمال الشيطانية المحرمة . شأنها شأن النحت والتصوير والرسم !!

* * *

★ الشيطان والفن التشكيلى

للشيطان أيضا صلة وثيقة بالفن التشكيلى .

هكذا يريد له الذين يعتقدون إن الشيطان قد حاول استخدام الصور والتماثيل التى صنعها الناس منذ قديم الزمان وأسبغوا عليها قسية الهية، لأنها كانت مضوعة بأمر الرب لبنيه موسى : «وكما أمر الرب موسى النبى بضاعة تابوت عهد الله الذى سيضعه فى خيمة الاجتماع قائلاً : وتضع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف . وتضع كاروبين من ذهب ، ضعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء . فاضع كاروبا واحدا فى الطرف من هنا . وكاروبا آخر على الطرف من هناك من الغطاء تضعون الكاروبين على طرفيه ، ويكون الكاروبان باسطين أجنحتيهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء . ووجهاهما كل واحد إلى الآخر نحو الغطاء يكون وجها الكاروبين . وتجعل الغطاء على التابوت من فوق . وفى التابوت تضع الشهادة التى أعطيك» (خر ٢٥ : ١٧-٢١)

وقـــد نفذ «موسى» هذه الوحية وضع الكاروبين (الملاكين) من ذهب . (خر ٣٧ : ٧)

«ومسحها بالدهن المقدس مع جميع الأوانى المقدسة . كما أمره الرب فصار قدس أقداس الرب» . (خر ٣٠ : ٢٢) و(خر ٤٠ : ٩-١٦)

«وما فاعله موسى النبى فى خيمة الاجتماع فعلة سليمان الحكيم فى الهيكل أيضا . فضع كاروبين من خشب الزيتون .. وغشاهما بالذهب . وكان علو الكاروب عشر أذرع . وطوله ذراعه خمسة أذرع»

(امل ٦ : ٢٣-٢٧)

فالصور والتماثيل بهذا المعنى كانت مقدسة ، تضع بأمر إلهى . والذين يعتقدون ذلك يعتقدون أيضا إن الشيطان بعد سقوطه سمح له الله أن يستخدم سلطانه وأنه قد استخدم هذه السلطات فى جذب الناس إيه كإله .. وساعده فى ذلك الملائكة الأشرار والسحرة فى إقامة التماثيل ورسم الصور للشياطين التى اتخذت القاب الآلهة مثل : بعل ومولك وأرطاميس وديانا .. وغيرهم من آلهة الأمم . وعبدت الأمم هذه الأضام حتى لقبوا بعبدة الأضام .

وهنا يجب أن نتذكر أهمية الرسوم والصور والتماثيل فى الأعمال السحرية والعبادة الشيطانية منذ قديم الزمان ، والذين يعتقدون ذلك . يعتقدون أيضا أن الله قد حرم النحت لهذا السبب ويقولون : لذا فإن الله حذر شعبه فى الوصيه الثانية من الوصايا العشر قائلاً .

«لاتضع لك تمثالا منحوتا . ولا صورة ما . مما فى السماء من فوق . وما فى الأرض من تحت . وما فى الماء من تحت الأرض . لاتسجد لهن ولاتعبدهن» . (خر ٢٠ : ٤-٥)

وهكذا عقدت الصلة بين الشيطان والنحت خصوصا ، أو الفنون التشكيلية عموما . وعليه فقد حُرِمّت تلك الفنون تحريما تاما ، واعتبرها أهل الدين من المحرمات . وحاكوا حولها الكثير من الأحاديث الناهية عن استخدام الصور أو التماثيل فضلا عن رسمها أو ضاعتها !!

* * *

- تجسدات إبليس .
- سليمان النبى .
- المسيح .
- النبى محمد .

★ الشيطان والأنبياء

★ تجسدات إبليس

دور الشيطان مع الأنبياء والرسل ، أما أن يكون بشكل مباشر مع النبى ذاته . أو أن يكون مع أتباعه وخصومه بحيث يحاول أن يصرف الأتباع عن إتباع النبى ، أو أن يؤلب عليه الخصوم أو يضع العراقيل فى سبيل رسالته ويتضح ذلك بجلاء فى الخطاب القرانى .

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد»

(٥٢ ، ٥٣ : الحج)

فأما الدور المباشر الذى للشيطان مع الأنبياء فيدل عليه الخطاب القرآنى فى أكثر من موضع مثل قول «أيوب» النبى :

«أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب» (٤١ : ص)

أوقول «يوسف» النبى :

«من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى» (١٠٠ : يوسف)

أو قول «موسى» النبى :

«قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين» (١٥ القصص)

أو قوله أيضا :

«وما إنسانية إلا الشيطان أن أذكره» . (٦٣ : الكهف)

وقد يصل الأمر إلى أن يتجسد «إبليس» نفسه ، سواء بمفرده أو بصحبة جنوده . ومثل هذه التجسدات الشيطانية ذكرت كثيراً فى كتب التراث ، من ذلك - مثلاً - ماروواه «القرطبى» فى معرض تفسير الآية (٤٨ : الأنفال) حيث قال :

«وإذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب»

قال : روى أن الشيطان تمثل لهم يومئذ (فى غزوة بدر) فى صورة «سراقة بن مالك بن جعشم» وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش

تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم ، لأنهم قتلوا رجلا منم . فلما تمثل لهم قال ما أخبر الله به عنه (الآية)(٤٤) .

وقال «الضحاك» : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده ، والقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون عن دين آبائهم .. وعن (عبد الله بن عباس) قال : أمد الله بنيه محمدا (ص) والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة . وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة (أى اتخذ كل منهما جانبا فى الجيش) . وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين: لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، فلما أصطف القوم قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع الرسول (ص) يده فقال : «يارب إنك إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا » فقال جبريل: «خذ قبضة من تراب» فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوفهم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينية ومنخريه وفمه ، فولوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من

المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال له الرجل : يا سراقة ، ألم تقل أنك لنا جار ، فقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون» .

ومن تجسدات إبليس أيضا ، ذاك التجسد الذى ذكره البيهقى فى «الدلائل» إذ قال :

إن عمار ابن ياسر قال : «قاتلت مع رسول الله الجن والأنس . فسئل عن قتال الجن فقال : أرسلنى رسول الله (ص) إلى بئر أستقى منها ، فرأيت الشيطان فى صورته ، فصارعنى فصرعته ، ثم جعلت أدمى أنفه بفهر (حجر) كان معى ، فقال النبى (ص) لأصحابه : إن عماراً لقى الشيطان عند البئر فقاتله . فلما رجعت سألنى فأخبرته الأمر ، فكان أبو هريرة (رض) يقول : إن عمار بن ياسر أجاره الله من الشيطان على لسان رسول الله (ص) .

ومن تجسدات إبليس أيضا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال :

«إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ، ليقطع على الصلاة ، وأن الله أمكننى منه فذعته (خنقته) ولقد هممت أن أربطه إلى

سارية من سوارى المسجد، حتى تنظرون إليه أجمعون . ثم ذكرت قول أخى سليمان: «رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، فرده الله خاسئاً » .

تلك تجسدات ذكرتها كتب التراث القديمة ، وأعجب منها تجسدات إبليس فى عصرنا . فالصورة التى يتوهمها البعض للتجسد العصرى لإبليس تضعنا مباشرة أمام العقل الدينى ومنطقه ومنهجه فى دراسة الظواهر ، يقول الكاهن «سلفادور فريكيسدو» فى كتابه «العقل الباطن الشيطانى» :

«إن رائحة الكبريت عندما تأتى فى أماكن ظهور وهبوط الأجسام الطائرة المجهولة لا يدل ذلك على شىء إلا على إن هؤلاء هم الشياطين بالذات ، وبإمكاننا أن نعكس التعبير بقولنا إنه فى كثير من مناسبات حضور إبليس لم يكن ذلك إلا بالحقيقة حضور أجسام طائرة مجهولة ، هذا مضافا إليه حضور الأقزام الشبيهة بالبشر» !!

* * *

★ سليمان النبى

قصة سليمان النبى مع الجن بمختلف أنواعه من القصص الشهيرة المعروفة .

ومن المعروف عن سليمان النبى أنه كان له سلطانه على مملكة الجن والطير والإنس ، وكان هذا السلطان مبسوطا لسليمان حتى قبل أن يسخر له الإله تلك الممالك وذلك بسبب ما كان له من العلم الموروث عن «داود النبى» .

«ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» . (النمل : ١٥)

ولما أضيفت النبوة إلى العلم ، سخر لسليمان جنوده من الإنس والجن والطير وذلك أيضا بسبب علمه بلغة ومنطق الطير ، وقصة الهدهد الشهيرة تدل على ذلك . أما الشواهد القرآنية التى تدل على قدرة سليمان وسلطانه على مملكة الطير والجن عموما ، ومنها الشياطين والعقاريت فهى معروفة ، منها النص القرآنى :

«إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم» (النمل : ٢٦)

«قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال (عفريت) من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين» (النمل : ٣٨ ، ٣٩)

أما السلطان الممنوح لسليمان على ممالك الإنس والجن فهو ذلك السلطان الشامل ، ومملكة الجن تضم أيضا الشياطين التى يعتبر النظر الدينى (العفاريت) أحد أصنافها .

* * *

★ المسيح

أما المسيح عيسى ابن مريم فقصته مع الأرواح الشريرة أشهر من أن تسرد فى هذا المقام .

وأغلب معجزات ابن مريم تدور حول شفاء البشر من الأرواح الشيطانية النجسة التى تتلبسها ، وقصة المسيح مع الشيطان نفسه - كذلك - من القصص المعروفة التى تروى كيف حاول الشيطان إغواء المسيح بكافة الطرق والوسائل حتى يصرفه عن متابعة رسالته .

لقد أعتكف المسيح فى البرية ، وصام أربعين يوما وليلة ، وأخيرا جاع . فظهر له إبليس وقال له : إن كنت ابن الله حقا فمر أن تصير هذه الحجارة أرغفة ، فأجابه المسيح بقوله : مكتوب أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله . فأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة ، وأقامه على شرفة الهيكل (وادى قدرون) من ارتفاع شاهق وقال له : إن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى الأسفل ، فإنه مكتوب : يوصى بك ملائكته ، فيحملونك على أيديهم لئلا تصطدم رجلك بحجر ، فقال له يسوع : مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك .

فأخذه - أيضا - إبليس إلى مكان شاهق فى جبل عظيم وأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها ، وقال له : أعطيك هذا كله إن خررت وسجدت لى، فقال له يسوع : إليك عنى يا شيطان ، فإنه مكتوب للرب إلهك تسجدو وأياه وحده تعبد . فتركه إبليس يائسا قانطا من إغواؤه .

ويذكر الله كثير بعض تجسدات إبليس للمسيح قائلاً:

«صلى عيسى ببيت المقدس فأنصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه قائلاً : ما ينبغى لك أن تكون عبداً . فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه وإبليس يردد : لا ينبغى لك أن تكون عبداً . فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل عليه جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف ، فلما أستقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه فى بطن الوادى . فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك ، فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه ينبغى ألا تكون عبدا ، إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيت مالقيت منك حين غضبت ولكنى أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فيطيعونك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما أنى لا أقول أن تكون إلها ليس معه

إله. ولكن الله يكون إلها فى السماء وتكون أنت إلها فى الأرض . فلما سمع عيسى ذلك استغاث منه بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط منظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوى ومر بعيسى وهو بمكانه فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعبا شديداً . فرمى به إسرافيل فى عين الشمس فوجد هناك سبعة أملاك عند العين الحامية ، فغطوه فيها فجعل كلما خرج منها غطوه فيها فما عاد إلى عيسى بعد ذلك أبداً »(٤٥) .

* * *

★ النبى محمد

فى رواية لابن أسحق ، قال : إن النبى (ص) أنصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، حين يئس من خبر ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة (واديان على مسافة ليلتين من مكة) . قام يصلى بجوف الليل ، فمر به نفر من الجن الذين ذكرهم الله ، وهم فيما ذكر لى : سبعة ، من جن أهل نصيبين (مدينة بين الشام والموصل) فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولو إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله خبرهم فى قوله :

«وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن - إلى قوله - ويجركم من عذاب أليم» .

أما دور الشيطان مع النبى فهو أشهر من أى دور له مع سائر الأنبياء، أقله تآمر إبليس مع أهل مكة فى دار الندوة على قتل النبى ، فهو صاحب الاقتراح الذى نفذته قريش عندما جمعت رجلاً من كل قبيلة لقتل النبى حتى يتفرق دمه بين القبائل . وهو الذى أعان «لبيد ابن الأعصم» على إعداد السحر للنبى فى مشط ومشاطه وضعها اليهود فى بئر «ذروان»(٤٦) .

وفى رواية لمسلم من حديث أبى الدرداء عن النبى (ص) أنه قال :
«إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت أعوذ بالله منك ، ثلاث مرات ، ثم قلت : العنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر، ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة اخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة» .

* * *

★ السحر والسحرة

★ السحر والسحرة

العقيدة الشيطانية هى أساس وجوهر العقائد الحسرية على إختلافها.

ولولا الإيمان الغيبى بالقوى الغيبية عموما ، وبوجود القوى الغيبية الشيطانية خصوصاً ، لما أمكن الاعتقاد فى السحر أو تأثير الطقوس السحرية ، والواقع إنالسحر - منذ قديم الزمان - كان على صلة وثيقة جدا بالعقائد الدينية ، لذا فليس من المدهش أن نجد هذا التغلغل الشامل للعقائد السحرية وطقوسها حتى فى أبسط تفاصيل الحياة اليومية ، فى مصر القديمة ، يقول «جيمس هنرى برستد» :

كانت الحياة المنزلية فى الشرق عموما ، قديما ، غير ممكنة فى نظر القوم إلا بالإلتجاء دائماً إلى نفوذ تلك العوامل السحرية ، ولولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الخفية الحرث والنسل . ولاعتقادهم إن مثل تلك الوسائل لاغنى عنها وبخاصة ضد الأمراض ، فإن الأمور العادية الخاصة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع - دائما - تحت حماية السحر فكانت الأم لا يمكنها أن تهدئ من روع طفلها

المريض المتألم وتجعله يضطجع طلبا للراحة إلا بعد الاسنجاد بالقوة الحفية لتقوم بتخليص الطفل من المرض ومن الحسد ومن سلطان أشباح الشر السوداء ، التى كانت تملأ جميع الأركـان المظلمة فى البيت ، أو التـى كـانت تتسلل من الأبواب أو النوافذ المفتوحة عندما يسدل الظلام ستاره فوق البيت . وتدخل جسم ذلك الطفل الصغير فتنتشر فيه الحمى .

وكان من هؤلاء الشياطين من يمكنهم التشكل فى صور محبوبة ، فيقترب الواحد منهم من المريض الصغير مظهراً العمل على شفائه وتخفيف الامه . ونستطيع أن نسمع صوت الأم وهى تنحنى على طفلها وتختلس النظر إلى الباب المفتوح خلال الظلمة المسكونة بقوى الشر هذه وتقول :

«هرول إلى الخارج أنت يا من تأتى من الظلمة ، يا من يدخل الينا خلسة وأنفه إلى خلفه ، ووجهه فوق ظهره ، هل أتيت لتأخذ هذا الطفل ، أنك لن تأخذه ، لقد أعددت لك ما يحيمه منك» ثم تعطى الأم طفلها مزيجاً مصنوعا من الأعشاب والسمك والشهد كان خاص بطرد الشياطين الشريرة الموكولة بالأطفال(٤٧) .

ولهذا اضطلع السحرة بدور هام فى كافة المجتمعات الدينية ، وتنوعت صور السحر ومدارسه وأنواعه ، ونحن نعرف - اليوم - عدة أنواع من السحر الأبيض ، والسحر الأسود ، والسحر الأحمر . ونعرف أن أشبع وأشد هذه الأنواع هو السحر الأسود :

سحر المردة والشياطين . وهو نوع من السحر يحتاج إلى صيام واعتزال وطقوس شاقة ، وتاريخ هذا النوع من السحر يمتد لأكثر من ٤٠٠ سنة ق . م عند اليونان القدماء . ومع ذلك لم تتغير الطقوس السحرية كثيراً ، وتذكر كتب السحر الأسود أسماء ٧٢ شيطانا ، وتذكر وظائفهم المتعددة . وأكثر من نصف هؤلاء الشياطين قادرون على تعليم الساحر العلوم والفنون والآداب والفلسفة والفلك والفوائد الخفية للنباتات والأحجار الكريمة . بينما يقدم البعض الآخر بكشف الغيب وإظهارالمسروق والكشف عن الكنوز ، ويقدم عدد آخر من الشياطين بإذكاء العداوة والبغضاء والحمى والموت للأعداء أو تعذيب الناس بالأمراض والدمامل المتقتيحة أبو بالعمى أو الصمم أو فقدان العقل والعته ، ثم هناك الخدم الذين يخدمون الساحر ، لمتفعته الشخصية ، ومعظم أسماء الشياطين مشقة من أسماء وثنية قديمة قبل الديانات

الكبرى التى حولت تلك الآلهة الوثنية إلى شياطين طردت إلى الجحيم ، فكل شيطان يحمل اسم إله قديم، ومن أشهر هذه الشياطين : لابارتو ، وعشتاروت ، وإبراكاس ، وأذسموديوس ، وبلفيجور ، وبعلزبوب . وهذا الأخير هو الساعد الأيمن للشيطان الأكبر ، وهو من أقوى الشياطين . ثم هناك شياطين ومردة أقل درجة من هؤلاء ويطلق عليهم أسماء متعددة بعضها عربى مثل : يغبوب وطوفرائيل وغيرهم.(٤٨)

• **المعرفة الشيطانية :**

يعلن السحرة جميعا إن لهم كتابهم المقدس الذى يحتوى على سر القوة .. وسر المعرفة .. وسر الحكمة .. وسر الحياة ... إلخ ، ولكن الواقع يدل على إن للمعرفة الشيطانية أكثر من كتاب يعتقد السحرة أنها جميعا كتب مقدسة منها (مثلا) سفر آدم الذى يعتقدون إن الله أنزله على آدم بعد سقوطه وطرده من الجنة ومطلعه هكذا : «بسم الخالق الحى الرازق وحده ، هذا الكتاب سفر آدم الذى أنزله الله القادر الملك القدوس صحبة ذريائيل الملك عليه السلام . فيه خفايا المعرفة وطرق الفهم وأفكار الخشوع والوقوف على غاية معرفة الأفلاك والعالم بكل ما فى السموات السبعة وما فيهم من أجناد الملائكة . أرباب الخدم المقدمين .

ومعرفة أسمائهم وما لهم من الخدام وكيف السبيل إلى التقرب إليهم وبلوغ الإيثار فيهم بإذن إله العالم ومعرفة العلم والعمل بما فيالعالم من جيد ورديء ومعرفة أوقات الموت والحياة والمرض والشفاء وتفسير الأحلام وحقيقة الرؤيا وطلبها وما هو أسبابها والطرق إليها فى أى وقت اختار وكل إنسان يريد المعرفة بما يأتى من الأمور من وقوع الحرب بين شعبين . ومعرفة ما يكون فى كل يوم وشهر وكل سنة فى الليل والنهار ووقت الأمطار وكثرة الإثمار .

ومن أراد أن يتسلط على جميع الأرواح ويحكم عليهم ويرسلهم بسرعة كالعبيد فى جميع ما يريد من خير أو شر .. أو يحكم على أربع أرباع العالم .. والإرشاد تطرق الخير والبلوغ فيدلك إلى ما تريد . ومن أسرار هذا السفر المبارك تعلم نوح عليه السلام حتى عمل السفينة وأول ما أدخل معه كان ذلك الكتاب المقدس وكان يعلم منه ما يكون فى كل يوم ويسأل الله تعالى قضاء حاجته به كل أيام حياته وفى وقت موته وبعده سلمه إلى ولد شيم وبلغ هذا بالتناقل إلى إبراهيم عليه السلام ومنه إلى اسحق إلى يعقوب وإلى ولده لاوى وإلى هيت إلى عمران إلى موسى عليه السلام إلى يوشع إلى شيوخ الأصل وإلى الأنبياء والحكماء جيل بعد جيل إلى أن وصل إلى سليمان الحكيم»(٤٩)

إذن يمكننا القول بأن المعرفة الشيطانية والممارسة السحرية من أهم الشروط الواجب توافرها للإتصال بالعالم الخفى للقوى الغيبية أيا كان مسماها ، سواء كانت الأرواح أو الجن أو الشياطين . ولسوف نجد إن العبادة الشيطانية تعتمد على تلك المعرفة وتلك الممارسات السحرية إلى حدٍ بعيد . بل إن الحسر وممارسته يشكل حجر الزاوية فى طقوس العبادة الشيطانية .

* * *

- الأصل القديم لعبادة الشيطان .
- الشيطان فى العصر الحديث .
- طقوس عبادة الشيطان .
- العقد الشيطانى .

★ عبادة الشيطان

«قديما وحديثا»

★ الأصل القديم لعبادة الشيطان

منذ قديم الزمن والهدف الأوحد للشيطان هو إفساد عقيدة التوحيد ، عقيدة الإله الواحد ، إله إبراهيم واسحق ويعقوب . وذلك بتشويه صورة الإله (أيل) أولا . ثم إحلال عبادة (بعل) - الشيطان محل عبادة (أيل) - الله ثانيا .

وقبل ظهور إبراهيم كانت عبادة (أيل) - الواحد ذاتها مشوبه بالكثير من الخرافات فى أرض كنعان . إذاكان الشعب يتصور الإله (أيل) ساكنا للسماء ، يعيش فى رفاهية .. وله زوجه أسمها (أشيرة) وله ابنتان هما : عناة وإيلات . وعدد آخر من الأولاد هم الملائكة (عددهم سبعون منهم خمسون ذكوراً وإناثا عشرون)(٥٠)

وقد جاء فى التوراة الكنعانية وهى (أصلاً) ترجمة للوحات الفخارية التى عثر عليها فى مدينة أوغاريت القدمية (حاليا : رأس شمرا) على بعد اثنى عشر كيلو مترا شمال مدينة اللاذقية بسوريا . ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وتحكى فى مجملها أخبار الملك الراحل فى شكل دروس وعبر تلقى على أبناء الملك بمثابة

توجيهات في الأخلاق والعقائد الدينية والسياسة والشخصيات الرئيسية فيها هى : (الملك ، الشعب ، الآلهة) .

ويعتبر الشعب نفسه شعب الله ، أو شعب أيل وعلى أساس هذا المعتقد آمن الشعب أيضا أنه يجب على الإله أن يساعد شعبه ، كما يترتب على بقية الآلهة التدخل لدى أيل فى حالة احجامه عن المساعدة ..

أما الويلات والكوارث فقد كان مصدرها هو «بعل» الذى يأتمر الأبالسة بأمره ، كما زنه يمثل خصب الطبيعة - من جهة أخرى - وسيطر على الغيوم والأمطار والصواعق وفى المعتقد الكنعانى القديم إن الإلهة (عناة) قد افهمت الإله أيل أن البلاد قد شعرت بأن عدم التسامح لايقود إلا إلى الخراب والدمار ، لذا عرضت مقترحاتها الآتية :

* لقد انطلقت الكوارث والأرزاء من عقالها لعدم وجود معبد يأوى إليه الإله «بعل» كما هو موجود لأى إله آخر .. جدير بإبن أشيرة ، فيجب أن يقام له فناء وتنظم عبادته .

بعل إذن هو ابن أشيرة ، زوجة أيل . أى أنه ابن الله فى المعتقد الكنعانى القديم ، وقد غضب بعل لعدم مساواته بجميع الآلهة الأخرى

فى العبادة . وتصف التوراة الكنعانية الإله بعل العظيم القدرة بإنه : إله شئوم .. كرسيه فوق الغمام ، ويتنقل عادة فى مركبة مما أعطاه لقب «ممتطى الغيوم» ولبعل سلطة مطلقة على الشياطين وعلى رئيسهم المباشر الذى هو أيضا حارس الأموات ودليل المتوفين فى عالم الموت . وهكذا فبإمكان بعل إطلاق قوى الغيب من عقالها .

وكان ملك البلاد قد أدرك أن (أيل) من اليه يد الانتقام وأدرك أنه لن يصل إليه أى عون من العائلة الالهية . لذلك كان عليه أن يطلب العون من «بعل» الذى يساعد فى الأوقات العصيبة ، وعلى الفور بادر الملك بخلع ثيابه .. إحياء للشعائر المرفوضة فى مثل هذه الحال ، وبصوت يخفيه البكاء بدأ يشتم الإله (أيل) والالهة «أشيرة» متعبداً إلى «بعل» .

- **الطقوس :**

كانت الصلاة إلى بعل .. على أقل تقدير بالنسبة للملك ز ى الاعتزال عن الغير ، وعلى المصلى أن يخلع ثيابه ويعلقها إلى جواره . فلا يجوز فى مثل هذه الصلاة سوى العربى التام ، ثم يشرع فى البكاء ويشتم الآلهة الأخرى المعادية حتى يرضى الاله بعل ويستجيب .

أما أول معبد «لبعل» فى «تدمر» فقد شيد فى القرن الأول للميلاد ، وقد بلغت ضخامة هذا المعبد ومدى سعته حدا جعل أهل تدمر يلجأون إلى المعبد أثناء خراب تدمر بعد إنكسار جيش (الذباء) وسكن الناس المعبد نفسه واتخذوا لأنفسهم فيه بيوتا وجعلوا بينها أزقة ، وسدوا جميع مداخله إلا واحدا إبقاء لغارات البدو(٥١) .

وظلت عبادة بعل قائمة ، حتى ان اليهود - أيضا - قد عبدوا هذا «البعل» وتركوا عبادة (أيل) وهدموا مذبحه ، وكان لعبادة (بعل : الشيطان) عدداً كبيرا من الأنبياء :

«فالآن ارسل وأجمع إلى إسرائيل إلى جبل الكارمل وأنبياء البعل أربع مائة والخمسين .. وأنبياء السوارى أربع المئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل ، فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تعرجون بين الفرقتين . إن كان الرب هو الله فإتبعوه . وإن كان البعل فإتبعوه . فلم يجبه الشعب بكلمة ، ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى .. فرمم مذبح الرب المتهدم» . (امل ١٨ : ١٩-٣٠)

واستمر الشيطان فى غوايته وإضلاله لملوك يهوذا وإسرائيل فأوقع كثير منهم فى شرك عبادته . حتى سليمان الحكيم يقول عنه الكتاب

المقدس : «وكان فى زمان شيخوخة سليمان إن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى . فذهب سليمان وراء «عشتروت» إلهة الصيدونمين . و«ملكوم» رجس العمونيين ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة «لكموش» رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ، و«لمولك» رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائره الغريبات اللواتى كن يوقرن ويذبحن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين . وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع إله آخر .. فلم يحفظ ما أوصى به الرب» . (امل ١١ : ٤ - ١٠)

ويرجع العقاد أصول الديانة الإبليسية إلى العقائد الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارات الأولى والأديان الكتابية ، ويذكر من غاياتها أنها تعمل - أحيانا - على مرضاة الشيطان ومرضاة الإله الأعلى بفريضة واحدة . ثم يقرر إن وسائل الدعوى لتلك العبادة سرية يبالغون فى كتمانها مع امتداد معابدها فى آسيا الوسطى إلى أوروبا الغربية وأفريقيا الشمالية ، وهو إلى ذلك يقرر أنه : من العسير أن توضع هذه النحلة فى نسق منتظم مع تطور العقائد فى مجموعة الأمم الإنسانية . ويقول : أنه من الراجح المعقول إن عبادة الشيطان تنتمى

قديما إلى الشعور بقوة الشر فى البيئة التى نشأت فيها . حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وجعلوا لإله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة إله الخير أو قريبة منها ، وتلك هى : «الثانوية - الزرادشتية» فى أقدم اطوارها .

لقد تأصلت الثانوية فى فارس ، ومعها تأصلت العبادة الشامانية وعبادة الأرواح والشياطين. ومنها عبادة «أهريمان» رأس الأرواح الخبيثة، صاحب السلطان النافذ فى عالم الإنسان . وظلت الثانوية والشامانية من أقوى العقائد حتى بعد ظهور المسيحية ، وقد حمل جنود الرومان عقائد الثانوية من تخوم الهند إلى الجزر البريطانية ممثلة فى عقيدة «مترا» إله النور الذى استشهد فى حربه مع إله الظلام ، لكنه وعد عباده بالعودة إليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الأرض والسماء معا مادات الأرض والسماء عقيدة أخرى هى المانوية - نسبة إلى مانى المولود فى بابل سنة (٢١٦م) الذى وسم أتباعه بأنهم أهرمانيون شيطانيون ، إذ لم يخرج مانى عن نطاق الثانوية (الزرادشتية) وسرى المذهب المانوى شرقا إلى الصين والهند وغربا إلى أفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية وسيادته على

العوالم الأرضية وبقائه مسلطا عليها إلى اليوم الآخر ويذكر «العقاد» إن المشهور من نحل العقيدة الشيطانية ثلاث هن : الكاثارية ، والجمولية ، والألبية . وإن الراجح لدى المؤرخون هو إن تلك الأسماء المتفرقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية تبعا لعلاقتها المحلية ، مع وحدتها فى مصادرها والتقاء مصادرها جميعا فى الرقعة الوسطى بين القارتين الأسيوية والأوروبية .

ومن تلك النحل أيضا «اليزيدية» فى شمال العراق ، وأغلب أبناؤها جميعا من الكرد وتعليم هذه النحلة موقوف على العلماء دون العامة ، والعلماء من أسرة خاصة تتولى الكهانة وأمانة الأسرار ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب آخر يسمى مصحف رش أو المصحف الأسود (٥٢) .

هذا عن الشيطان قديما ، أما فى العصور الوسطى فإن أشهر ظهورات الشيطان بها هى تلك القصة الشهيرة المعروفة باسم «شياطين لودن» التى راح ضحيتها الأسقف «جرانديه» الذى أتهم بالتعاقد مع الشيطان لإغواء راهبات بلدة لودن وإفسادهن .

وتبدأ القصة بإصابة بعض الراهبات بالصرع وابتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات الصرع بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات . وأتهم الأب «جرانديية» بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وبالفعل قدم الأب «جرانديية» إلى التحقيق تمهيداً للمحاكمة . وشهدت إحدى الراهبات أنها فريسة للشيطان بإغراء الأسقف الساحر .

وأستمع المحققون - بالطبع - إلى إعتراف الشيطان الذى تكلم بلسان الراهبة الفرنسية . وذكروا ذلك فى تحقيقاتهم وقد تقررت إدانة الأسقف بشهادة الشيطان نفسه وكانت النتيجة هى الحكم عليه بالإعدام حرقا بعد إعادة التحقيق فى (٢٠ مايو ١٦٣٤) !!

* * *

★ الشيطان فى العصر الحديث

أعظم الدول فى القرن العشرين تنشر يوميا فى أقوى الصحف والمجلات العالمية أخباراً عجيبة تتعلق بالسحر الأسود وعبادة الشيطان والمحافل السرية والعلنية لعبدة الشيطان .. ومثال ذلك :

- مجلة تايم :

ذكرت فى عددها الصادر فى تشرين الأول ١٩٨٢ موضوعا عن : «عودة الشيطان المبجل إلى الولايات الأمريكية» وأفردت المجلة لهذا الموضوع خمس وعشرون صفحة تؤكد الصلة الوثيقة بين السحر وعبادة الشيطان ، وتتحدث عن ممارسات وأعمال سحرية يقوم بها الملايين من الشعب الأمريكى . وتؤكد إن عبادة الشيطان تتم ضمن أجواء خاصة مهيأة لمثل هذه الاحتفالات الأسبوعية والتى تبتدئ بالرقص العارى تيلوه حفلات الإباحة الجنسية والهستريات وتنتهى بجرائم شاذة وغامضة.

وتؤكد المجلة أن مدينة «أوكلاند» بولاية «كاليفورنيا» - مثلاً - تنشر بها عبادة الشيطان ، وإن ولاية «شيكاغو» بها ما يتراوح بين ٧٥

إلى ١٠٠ شخص يجتمعون أسبوعيا فى «معبد الشيطان المعظم» وإن لهذه العبادة كتب خاصة تباع فى أضخم المكتبات فى سان فرانسيكو وشيكاغو ونيويورك ونيوجيرسى وتحمل عناوين غريبة مثل : «الشيطان والبحر الأسود » و«العبادة المخلصة للشيطان» و«الشيطان المبجل» وقد كان كتاب الإنذار لوليم بلاتى أكثر هذه الكتب رواجا فى أمريكا ، إضافة إلى الكتاب الرئيسى لانطون جاندرو لا فى «كتاب الشيطانالمقدس» . ولا فى هذا هو مؤسس محفل الشيطان فى سان فرانسكو سنة ١٩٦٦

فى فرنسا :

هناك .. برنامج إذاعى متخصص ، تقدمه مدام «سوليل» أسبوعيا عن السحر الأسود وعبادة الشيطان .

فى ألمانيا :

يؤكد «هورست كنوت» - الصحفى إن هناك أكثر من ٥٠٠ ألف رجل وامرأة فى ألمانيا الغربية يمارسون نوعاً غريبا من العبادة هو : عبادة الشيطان ، وأكثر من ٧٠٠ ألف شخص يتعاطون العلوم السرية للشيطان.

فى كندا :

عرضت صحيفة «شارلتان» فى عدد مارس صورة لبيت تشغله جماعة «اكسياهاوس» حيث أعتزل فى هذا البيت جماعات من الشباب والشابات لممارسة عبادة الشيطان وعرضت المجلة لموضوع العبادة ولمصير أعضاء الجماعة الذين يحاولون الانشقاق عليها وبعض حالات الانشقاق التى تعرضت للقتل مثل : تشاك ستنسل الذى وجد مقتولا فى الصندوق الخلفى للسيارة بعد إجباره على تعاطى جرعة كبيرة من الكحول . وكذلك حالة : اسكوت فيليس الذى القت به منظمة (دلتا) من عمارة شاهقة فمات فوراً .

وتنتشر منظمات وجماعات عبادة الشيطان تحت مسميات مختلفة وكثيرة منها :

* منظمة روزيكروشيان : (أحفاد الفراعنة) .

* منظمة مت ذانيوجريك : (أحفاد الأغريق) .

* جماعة أكسياهاوس .

* منظمة دلتا .

* * *

★ طقوس عبادة الشيطان

تقوم العبادات الشيطانية على نوع من القداس أو الطقوس التى تقام بعد منتصف الليل حيث يتم تعميد الأتباع وتوقيق صك الإذعان للشيطان.

فى البداية : يأتى من يريد الإنضمام إليهم فتقدم له ضفضعة كبيرة يقوم بتقبيل مؤخرتها ، ثم يأتى رجل له عينان شديدتا السواد ، ووجه باهت ، وفمه ضامر ، ويدان شديدتا البرودة .. ممثلاً للشيطان إله الموت والبرودة ، فيقبل يده علامة على موافقته على الإنضمام للجماعة . ثم يجلس الحاضرون فى دائرة لتناول الطعام وممارسته اللهو والفسوق . وتظهر قطة كبيرة سوداء من خلف تمثال مقام وسط المكان فيقبل عليها من يريد طالبا البركة ، ويقبل ظهرها ، ثم تطفأ الأنوار ، وهى غالبا الشموع، ويدأ فاصل من الممارسات الجنسية الشاذة والقذرة . ثم توقد الشموع مرة أخرى ليظهر رجل من ركن مظلم ، نصفه الأعلى له بريق فسفورى ونصفه الأسفل أسود داكن كالقط الأسود . ويقبل الجميع عليه ، يقبلون مؤخرته وبطنه (حول السرة) ويعلنون له الولاء . ثم يتم توقيع صك الإذعان والتسليم وبيع النفس إلى الشيطان ، مقابل كل ما يطلب

من لذات الدنيا ونعيمها وجاهها ، وفى المقابل تصبح الروح ملكا للشيطان عند وفاة المرء(٥٣) .

• القداس الأسود :

يقوم على نفس القداس الذى قام به المسيح لكن بشكل معكوس تماما للمعنى الجوهرى للقداس .

ويبدأ القداس الأسود بما يسمى قداس الروح القدس عند منتصف الليل بعد أن يحضر الخبز المقدس والنبيذ ، وعند شروق الشمس يحضر «كاهن الشيطان» ديكا أسود ويذبحه ويفقأ عينية ويخرج قلبه وهو لا يزال ينبض ويخرج لسانه ويجفف الجميع فى الشمس ثم يسحقها إلى مسحوق ، أما بقية الديك فيتم دفنها فى مكان سرى .

وفى اليوم الثانى يتم عمل قداس جديد : هو قداس الملائكة ، حيث يغمس بعضا من ريش الديك المذبوح فى الما ء المقدس . ويكتب به على قماش أبيض بعضا من أسماء القوة .

وبعد يومين آخرين ، وعند منتصف الليل ، يشعل الساحر القس شمعة من الشمع الأصفر ويتلو المزمور (٧٨) من كتاب المزامير ، ثم

يقوم بعمل قداس للموتى طالبا طاعة الشيطان له واستجابته لمطالبة . ثم يطفئ الشمعة . وعند شروق الشمس يقوم بذبح حمل رضع ، ويسلخ جلده، ويدعك هذا الجلد بالمسحوق الذى جمعه من الديك فى اليوم الأول . وبعد ذلك يستعمل هذا الجلد بعد تقطيعه للكتابة السحرية التى يريدها ، ثم يعيد القيام بقداس الموتى مع ذكر أسماء الشياطين واستدعائهم حتى يحضروا ويستحيبوا له .

• **سبت الساحرات :**

يلتقى عبده الشيطان أسبوعيا ، كل سبت ، فيما يسى «بسبت الساحرات» . لكن هناك أياما يصبح فيها للسبت خطورة خاصة مثل (٣١ أكتوبر) أما الماء المستعمل فى القداسات السوداء فقد يكون ماءاً آسنا ، أو يستعمل البول بدلا منه . وتتلى الصلوات المحرفة ، وتنادى الشياطين بأسماءها : بعلزبوب (مثلاً) حتى يظهر على شكل الجدى كما يقولون . فتبدأ طقوس تقديم الولاء ، والطاعة للشيطان .

ومن أشهر قصص القداس الأسود على مدار التاريخ ، قصة مدام دى مونتسبان والملك لويس الرابع عشر .. والمركيزة دى مونتسبان أسمها الحقيقى «فرانسواز» قد أصبحت وصيفة للملكة ، عتيقة للملك نفسه ،

وكان حبها للملك شديداً وغيرتها أشد . لذا لجأت إلى الممارسات السحرية للتأثير على الملك ، يساعدها فى ذلك الوزير «لافوازيه» الذى أحضرلها القس الضال «الأب ماريت» من عباد الشيطان . فلم يفلح ، وفى سنة ١٦٧٣ أستبدل «لافوازيه» - ماريت بقس آخر أقوى منه هو : «جيبورج» الذى قام بعمل قداس أسود على جسد المركيزة العارى ذبح فيه طفلا رضيعا وعجن الدقيق بدم الطفل ، وضع من هذا الدقيق خبزا وضع للملك فى طعامه ، وأنكشفت المؤامرة فقبض على الوزير والأب ماريت والأب جيبورج سنة ١٦٧٩ ثم اختفت المركيزة سنة ١٦٩١ من البلاط تماما حتى ماتت سنة ١٨٠٧ ، أما جيبوج فقد جات بعد ثلاثة سنوات من السجن مقيداً بالسلاسل(٥٤) .

• **صلوات الشيطان :**

لكل عبادة صلواتها التى تؤدى أثناء ممارسة طقوس العبادة .

ونفس الأمر ينطبق على عبادة الشيطان الذى تتلى له الصلوات أثناء الطقوس ، ومن أشهر هذه الصلوات ما يقال فيه للشيطان : «يا زهرة بنت الصبح» ، يامن سقط مركزه الرفيع ، والذى يميل البشر إلى تسميته بالشر المجسم ، ها نحن نرفع إليك أصواتنا ، نحن نعرف بأنك

لا تستطيع أن تمسنا بسوء إلا بسماح من الله القدير . الذى أنت جزء منه لا يتجزأ ، والذى تقوم بدوره فى خدمة الله ، ولسنا نستطيع أن نناقش أحكام الله . فمن أعماق دنا ءتك وأسفافك تنبع أنهار من الحق الإلهى ، فلماذا يتحول عنك ؟ هل فى نظر الله واحد أفضل من الآخر ؟ نحن نعلم أنك فى الختام ستبزغ فى كونه الفسيح . مطهراً بفعل محبة الله ، لأن محبته لن تبلغ الكمال بينما يتخبط أحد أبنائه فى شقاء ، وها نحن أولا نقف معك يداً بيد . أمام عرش القديم الأيام . وكما كنت كوكب الصبح ستصير أيضا ملاكا من النور ، فيا أيها الشيطان سوف نقمعك بحبنا ولسوف سجد بدورك معنا فى تواضع أمام عرش الله(٥٥).

أو تلك الصلاة التى يقال فيها للشيطان :

«يا رئيس الظلام ، ويا ملك النور ، الله والشيطان ، الخير الأعظم والأخير الأقل ، الكائن الكامل والكائن الناقص ، نسألكما ونلتمس منكما أن تهيئا لنا أن نعرفكما ، لأننا بمعرفتكما . نعرف المزيد عن أنفسنا ، وإن كان فى سبيل ذلك يتعين علينا أن نعتسف فى الجحيم . فيا مرحبا : نعتسف مع أرواح الظلام ، تخبرنا الكنسية والعالم بأن الشيطـــان يحـــول فى الأرض كأسد زائر ، ملتمسا من يتبلعه . إلا أننا

لا نعرف فيك إلا نقيب الله ، الذى يقف على يساره ، هادى البشرية ، الواسطة التى تعمل على البلوغ لكل شىء سواء أكان عقليا أم أدبيا إلى الكمال »(٥٦) .

أو تلك الصلاة التى يقال للشيطان فيها :

« أيها الشَيطان زعيم الإباليسة فى جحيم المسيحية . يا ملك الهاوية

والعقاب التى أعطى لها أن تغيير الأرض لمدة خمسة أشهر ، أصرع إليك أن تصغى إلى صلاتى ، بارك عبدك ، فى خدمتك . أمامك ، إملأ فمه بأقوال الحكمة ، ومكنه من الدفاع عنك ضد المفتريات الكاذبة والتهم الباطلة التى سوف توجه إلى جلالك الجهنمى فينتصر بالحق والمنطق على خصومك ، لكى يدرك هذا الجمع أنك شيطان تسمع وتستجيب الصلاة »(٥٧) .

• **شرائع الشيطان :**

فى عام ١٩٨٢ عثرت الشرطة الأمريكية على جثة شاب فى العقد الثالث من عمره ، يدعى «ميكائيل كوشيران» .. كانت الجثة مسحوقة

بطريقة بربرية بشعة ، وقد بلغت درجة التشويه حداً أصاب رجال الشرطة بالتقيوء والإشمئزاز . فالجثة تبدو وكأنها قد سحقت تحت دواليب مجنزرة عملاقة ، عدة مرات ، فعملت فيها تمزيقا وتشطيبا بشكل مروع للغاية .

فى تلك الأثناء كان الناس يتساءلون عن أسباب هذه الجريمة البشعة المروعة .. وما الذى جناه هذا الشاب حتى يستحق مثل هذا العقاب الشنيع ، وبكل بساطة ، كان الجواب :

لقد كان الشاب مخوراً بنفسه على أساس انتمائه إلى إحدى الفرق السرية ، ولقد روى لأصدقائه كيف تمارس الفرق السرية احتفالاتها ، وأين ومتى .. وعلى هذا فقد حذرته الفرقة بهيئة أعضائها إلى عدم الثرثرة فى هذا الموضوع ، وإن هذا الكلام الذى يبوح به يدخل تحت طائلة «الخيانة العظمى» وليس ثمة عقاب للخيانة العظمى فى شرائع الشيطان سوى الموت المحتم .

• **عروس الشيطان :**

فى شهر كانون الأول ، قبل عيد الميلاد بأيام قليلة من عام ١٩٨٠

وقعت أروع حادثة ، حيث اكتشف رجال البوليس السرى التابع لولاية لوس إنجلوس جثة شابة مشوهة فى أحد الأحراش على أطراف المدينة .

كانت الضحية فتاة جامعية ، تبلغ من العمر عشرون عاماً ، وتدعى « كارين سبودا » ولقد تم الاعتداء عليها بالضرب المبرح .. ومن ثم اغتصبت بوحشية وعنف ، وبعد ذلك تم صلبها على دولابة عربة جر الخيل ، بحيث كان رأسها إلى الأسفل وقدميها إلى الأعلى ، وقد فرغ جسدها تماما من الدم بشكل مثير للدهشة . وهنا بدأت التساؤلات ...

ما هو الإثم الذى أقترفته تلك الفتاة حتى تنال مثل هذا التعذيب الوحشى البالغ القسوة ؟ ولماذا شربت الشياطين دماءها أثناء احتفالاتهم الهستيرية ؟ هل كانت عضوه بأحد الفرق السرية لعبادة الشيطان ؟ ولماذا اختيرت لتكون عروس الشيطان التى يتوالى على اغتصابها السيء وأتباعه بهذه الوحشية البشعة ؟

* * *

★ العقد الشيطانى

يعتقد كثير من الناس إن العقد المبرم بين الساحر والشيطان هو عقد حقيقى . وإنه ليس ضربا من الخيال ! وهو على ذلك يمثل عقداً بين طرفين لإثبات إن الساحر قد باع نفسه وروحه وجسده للشيطان نظير ما يمنحه له الشيطان من القوة والمقدرة على فعل السحر .

لقد ذكر «موريس جارسون» أحد أقطاب المحاماه فى فرنسا ، ويعتبر مرجعا يوثق به فى عالم السحر والسحرة ، إن كل الإلتزامات الواردة فى العقد من الطرف الأول (الساحر) يقوم بها دون أى التزام من الطرف الثانى (الشيطان) حتى يرجع الطرف الأول فى حالة إخلال الشيطان بمساعدته .

* فى عام ١٦١٩ ميلادية ، أعدمت الساحرة الكبيرة «استيفانون دى أودريت» بعد أن أظهرت عقداً أبرمته مع الشيطان . وكان هذا العقد عبارة عن قطعة من جلد القط أو الكلب ملوثة ومحررة بدماء الحيض وغيرها من القاذورات .

* فى عام ١٩٣٤ تم إعدام الساحر الكبير «أوربان شواندى» بعد تقديمه للمحكمة أقذر وأخبث عقد شيطانى ومازالت صورة هذا العقد محفوظة بالمكتبة العمومية فى باريس .

يوجد - أيضا - بمكتبة «إبسالا» صورة هذا العقد المبرم بين الشيطان والساحر المعروف «دانيال سالتنوس» أستاذ اللغة العبرية.

* أما قسم المحفوظات فى كاتدرائية «جرجنتى» يوجد أيضا أحد العقود الشيطانية العجيبة التى يقول أنها موقعة بتوقيع الشيطان الكبير نفسه ، وقد وقع هذا العقد أحد القساوسة مع إبليس نفسه. وإن العقد كان مكتوبا بلغة معقدة جداً .

أما الشروط التى يقوم عليها أى عقد شيطانى فهى :

* يبيع الساحر روحه وجسده للشيطان مقابل أن :

- يلتزم بمساعدة الساحر على عمل السحر وأن يمده بالقوة والعلم السحرى لتحقيق أغراضه .

- يلتزم الساحر بإداء الطقوس الشيطانية الخاصة بعبادة الشيطان وتطبيق كافة شروطها المتعلقة بها .

* منذ اليوم الأول للعقد يدفع الشيطان الساحر بعلامته الخاصة ويمنحه حق الانتماء إلى أتباع إبليس بحيث يكون مجرد منح هذا الحق المعنوى مصحوبا بعلامات خارجية تظهر على الساحر نفسه منها :

- إنقلاب سحنة الساحر إلى سحنة شريرة منفرة .
- يستحيل جسد الساحر إلى هيكل عظمى خشن الجلد .
- ينزع الشيطـــان من قلب الساحر كل عطف أو حب أو عواطف نبيلة.
- يستبدل الشيطان جميع العواطف النبيلة للساحر بمشاعر أخرى نقيضه كالخبث والطمع والحقد والشر .

ونحب قبل أن ننتهى من هذا الفصل أن نقول : إن العقائد الشيطانية وما يتعلق بها من الممارسات السحرية لم تكن وقفا على العالم الغربى فى العصر الحديث ، بل هى أيضا معلومة لدينا فى العالم العربى .

ونظرة شاملة فاحصة على كتب السحر العربى تدلك على إن للساحر وسائله العربية للإتصال بالشيطان . ومثال ذلك ما ورد فى أحد كتب السحر عن كيفية الاتصال بالشيطان والتعامل معه وتسخيره حيث قال المؤلف :

عزيمة إبليس التى تقال أثناء استدعاؤه هى :

«ياه ياه شهور يا هور يا هون أنا يا خيروم خلوم حاشف حاج ملاردوش زعزعه طظهير كهط كهش مهش أركتياه مطظروش نياوش صعرهاطيش قطعال فليشوش أشريوش ويوش هياش ولوب هوش ، ياهين ، هياهين ،» .

على أن تكتب هذه العزيمة فى زيادة النور ، آخر شهر عربى ، بدءاً من يوم أحد ، وتبخر ببخور تحت الرأس مدة أيام الرياضة (٣ أيام) والبخور هو : العود ، أما الإصراف فهو : الهمزة والزلزلة (٧ مرات) والتبول على المجمرة !!

* * *

وأخيراً...

ليس ثمة عقيدة لدى بنى البشر تخلو من الشيطان ، ولنتساءل مرة أخرى .. ماذا لو خلى هذا العالم من وجود الشيطان ؟ حتى وأن كان الشيطان هو مجرد ذلك الرمز المجرد الذى ابتدعه الخيال الشعبى الدينى ! وهل يمكن للإنسان أن يمحوا من ذاكرته كل ماله علاقة بالشيطان ؟ هل يمكن للإنسان أن يتنازل عن الجانب السلبى من الأنا البشرية ؟

لو حدث هذا لأمكن أن تتحقق «اليوتوبيا» على الأرضى ، بيد إن العقلاء - حقا - يدركون تماما إستحالة تحقق اليوتوبيا التى تعنى تحقق الكمال فى هذا العالم .

* * *

★ الهــــوامــــش ★

(١) قصص الأنبياء : ابن كثير ، ص ١٧

(٢) القضاء والقدر فى الإسلام : فاروق الدسوقى ، دار الدعوة ، ج١ ، ص٢

(٣) السحر والجان فى مملكة الشيطان : جوزيف بطرس ، د . ن ،

(٤) السحر : محمد محمد جعفر ، الانجلو المصرية ، ص ١٥٣

(٥) العالم غير المنظور : على بعد الجليل راضى ، ١٩٦

(٦) ابن بتمية ، مجموع الفتاوى ٤/٢٣٥ ، ٢٣٦

(٧) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، العسقلانى ، ٣٦٠ ، ص ٣٤ المطبعة السلفية بمصر .

(٨) التلمود : شريعة بن إسرائيل ت : محمد صبرى .

(٩) صحيح مسلم كتاب رقم ٤٦

(١٠) جلالة ملك الجحيم ، ديف بريز ، ت : يوسف قسطة ، دار التفسير. بيروت .

(١١) الشهر ستانى : الملك والنحل ، تحقيق محمد الوكيل ط الحلبى ؟ ١ ص ١٤

(١٢) القضاء والقدر فى الإسلام : فاروق دسوقى ، سابق ص ٢

(١٣) المصدر السابق ، ص ٧

(١٤) المصدر السابق ، ص ٩

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٠

(١٦) الابريز : الدباغ ، ج٢ / ص ٤٣

(١٧) الصوفية : الوجه الآخر ، جميل غازى . ص ١٠٩

(١٨) الإنسان الكامل : الجيلى ، ج٢ / ص٤٢

(١٩) رحلة مع الله الصوفية والتصوف عاطف عمارة والصوفية الوجه الآخر ، سابق ص٤١

(٢٠) طبقات الصوفية : السلمى ، ص١٤٩

(٢١) إبليس : العقاد ، نهضة مصر ، ص٤٥

(٢٢) الفلسفة الشرقية : د/ محمد غلاب ، ص٨٥ ، الانجلو المصرية .

(٢٣) السابق : ص ١٠٨

(٢٤) الجن والشياطين بين العلم والدين ، رياض العبد الله ، ص١٩٧

(٢٥) الفلسفة الشرقية : د/ محمد غلاب ، ص ١١٥

(٢٦) السابق : ص ١٢١

(٢٧) السابق : ص ١٢٣

(٢٨) السابق : ص ١٢٥

(٢٩) السابق : ص ١٥٦

(٣٠) تحقيق ما للهند من مقوله : البيرونى ، ص٣٢

(٣١) الفلسفة الشرقية : د/ محمد غلاب ص ٣١١ ، الانجلو المصرية

(٣٢) إبليس : العقاد ، نهضة مصر ، ص١٦٩

(٣٣) نفسه : ص ١٨٦

(٣٤) العمـدة : ابن رشيق الفيروانـى ، تحقيق محمـد محـى الـدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ج١ ص٣

(٣٥) الديوان : أبو نواس ، دار صادر ، بيروت ، ص١٢٥

(٣٦) نفسه ، ص٢٩١

(٣٧) العمدة : ابن رشيق ، سابق ٢/ ٢١

(٣٨) نفسه ، ٢/ ١٢٠

(٣٩) رواه مسلم .

(٤٠) إبليس : العقادة دار نهضة مصر ، ص١٦٩

(٤١) نفسه : ص١٨٦

(٤٢) الفرقـــان بين أوليـــاء الرحمـن وأولياء الشيـطان ، ابن يتميه ، ص٣٢، ٣٨

(٤٣) تاريخ الملوك والرسل ، الطبرى ، ١/ ١٦٧

(٤٤) تفسير القرطبى ، ط الشعب ، ص ٨٦٥

(٤٥) قصص الأنبياء : ابن كثير ، دار الحديث ، ص٥١٧

(٤٦) القوى الخفية : عاطف عمارة ، دار رؤيا للإعلام والنشر .

(٤٧) فجر الضمير : جيمس هنرى برستد ، ت سليم حسن ، ص٢٦٣

(٤٨) السحر والعلم : د. عبد الرحمن نور الدين ، دار الهلال ، ص٦٧

(٤٩) السحر والجان فى مملكة الشيطان : جوزيف بطرس ، ص ٢٠٠

(٥٠) التوراة الكنعانية : ايلى ميليكو ، ت : مفيد عرنوق .

(٥١) تاريخ الأدب العريانى : د. مراد كامل ، مطبعة المقتطف ، ص٨

(٥٢) إبليس : العقاد ، ص ١٤٠

(٥٣) السحر والعلم : سابق ، ص١١٢

(٥٤) نفسه : السابق .

(٥٥) ما وراء الموت : كارليل . ب هينز ، دار الشرق الأوسط ، ص٥٨

(٥٦) نفسه : السابق .

(٥٧) سينزاف تايمز : عدد (١٠ مايو ١٨٧٧) .

* * *

★ المصادر ★

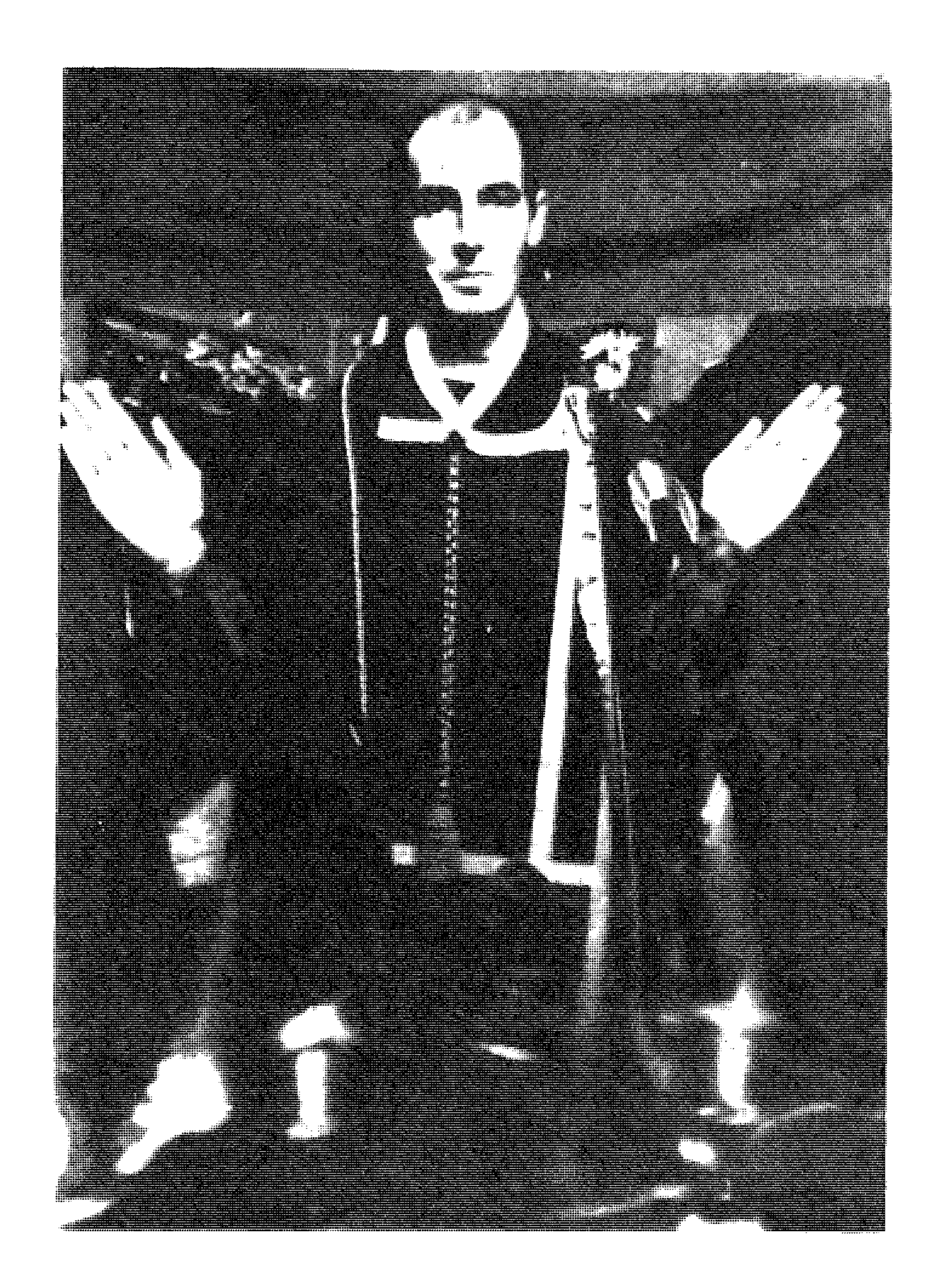
- القرآن ، التوراة ، الإنجيل .

الكتاب	المؤلف	
- فتح الباري	البخاري	
- مفردات القرآن	الأصفهاني	
- قصص الأنبياء	ابن كثير	
- إغاثة اللهاف	ابن القيم	
- الفرقان	ابن تيميه	
- أكام المرجان	الشبلي	
- الغصن الذهبي	جيمس فريزر	بإشراف : أحمد أبو زيد
- فجر الضمير	جيمس هنرى برستد	ت : سليم حسن
- التوراة الكنعانية (اللآلئ)	هـ. ى. ديل ميديكو	ت : مفيد عرنوق
- ما وراء الموت	كارليل ب هينز	الشرق الأوسط . بيروت
- جلالة ملك الجحيم	ديف بريز	ت : يوسف قسطه
- تاريخ الأدب السرياني	د/ مراد كامل	مطبعة المقطم

- السحـــر والعلـم	د/ عبد الرحمن نور الدين	دار الهلال
- الجبة والشياطين بين العلم والدين	رياض العبـد الله	دار الحكمة
- السحر والجان فى مملكة الشيطان	جوزيف بطرس	د. ن
- التلمـود شـريعة بنـى إســرائيل	محمد صبرى	
- إبليس	العقـاد	نهضة مصر
- السحر	محمد محمد جعفر	الانجلو المصرية

* * *

★ المحتويات ★



كاهن الشيطان فى كاليفورنيا (صورة ١)



صورة الشيطان كما تخيلها الرسام فى القرن الخامس عشر (صورة ٢)



سحر السيمياء

الشيطان يوسوس فى أذن من يمارس السيمياء (صورة ٣)





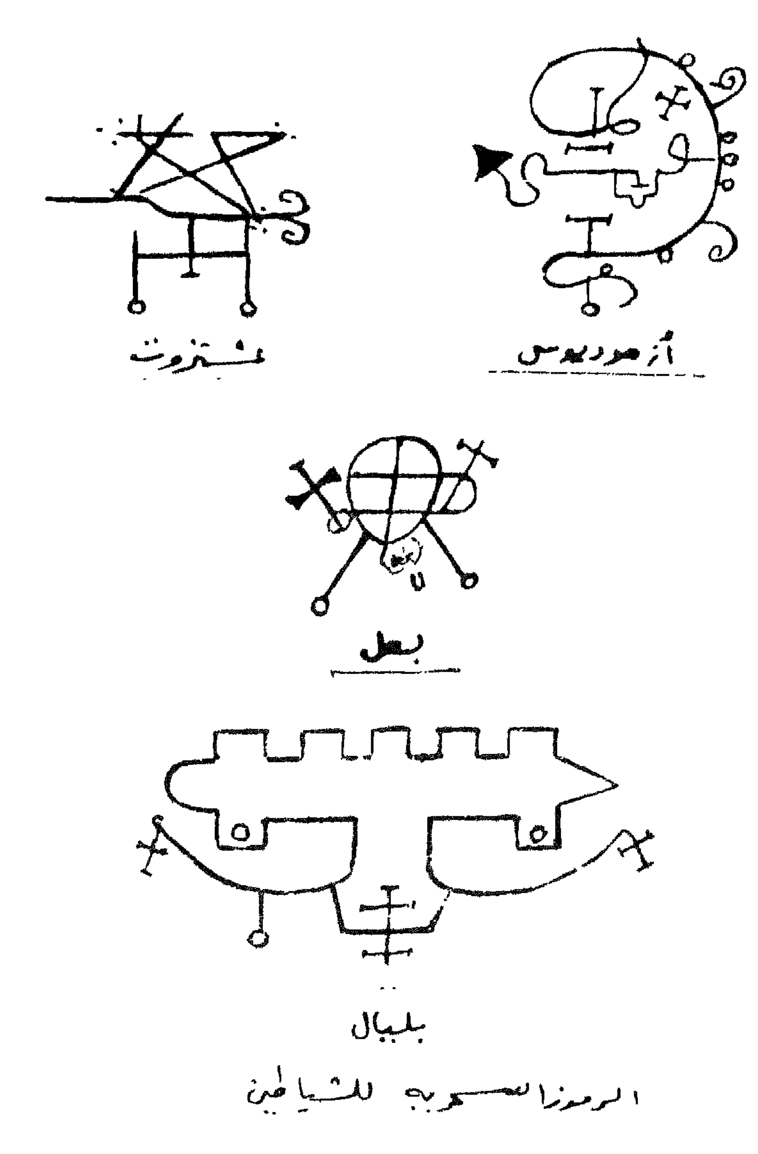
الكابالا .. هى الأصل فى كل الممارسات السحرية الغربية (صورة ٥)



طقوس عبادة الشيطان (صورة ٦)



شيطان أم جان ؟ (صورة ٧)



الرموز السحرية للشياطين



عشتروت (صورة ٩)

رقم الايداع ١٠٥٠٢ / ٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 19 - 1760 - 9